

# تفسير المرآة الخفية

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية  
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثامن والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

---

حقوق الطبع محفوظة

## الجزء الثامن والعشرون

### سورة المجادلة

هي مدنية وعدة آياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة المنافقين .  
ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الوادي .

(٢) أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجميلة ومنها الظاهر والباطن — وذكر

في مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ

يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ

مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ

مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ،

ذَلِكَ كُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ  
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامَ سِتِّينَ  
مِسْكِينًا ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

### شرح المفردات

سمع : أى أجاب وقيل ، كما يقال سمع الله لمن حمده ، والتي تجادلك في زوجها: هي  
حوالة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى تراجمك الكلام في أمره وفيما  
صدر منه في شأنها ، وتشتكى إلى الله : أى تبتئ إليه ما انطوت عليه نفسها من غم  
وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت أخو عبادة  
ابن الصامت ، والسمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله تعالى لنفسه ، والتحاوور:  
المراودة في الكلام ، والكلام المردد ، كما يقال كلمته فما رجع إلى حواراً : أى مارداً على  
بشيء ، والظهار : لغة من ظاهر ؛ ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال  
ظاهر فلان فلانا : أى نصره ، وظاهر بين ثوبين : أى لبس أحدهما فوق الآخر ،  
وظاهر من امرأته : أى قال لها أنت على كظهر أمي ، أى محرمة ، وقد كان هذا أشد  
طلاق في الجاهلية ، والظهار شرعاً : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسبا  
أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية ،  
«إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» : أى ما أمهاتهم ، والمنكر: ما ينكره الشرع والعقل  
والطبع ، وزوراً : أى كذباً ، فيتحرير رقبة : أى عتق عبد أو جارية ، أن يتماسا : أى  
يجتمعوا اجتماع الأزواج ، متتابعين : أى متواليين ، فمن لم يستطع : أى لم يقدر على  
ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، حدود الله : أى أحكام شريعته ،  
وللكافرين : أى للذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

## المعنى الجملى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت. ومن حديث ذلك: «أن أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، فدخل على خولة يوماً فراجعته بشيء، فغضب، فقال لها: أنت على كظهر أمى (وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه) وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فندم لساعته، فدعاها (طلب ملامستها) فأبت، وقالت: والذي نفسى بيده لا اتصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله، فأنت الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى، فلما خلا سنى وثرت بطنى (كثير ولدى) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد، فإن كنت تجدى لى رخصة تنعشنى بها وإياه فخذنى بها، فقال عليه الصلاة والسلام: والله ما أمرت فى شأنك بشيء حتى الآن، وفى رواية ما أراك إلا قد حرمت، قالت: ماذا كرت طلاقاً، وجادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً ثم قالت: اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى، وما يشق على من فراقه، وفى رواية أنها قالت: أشكو إلى الله فاتقى وشدة حالى، وإن لى صبية صفاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلى جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وما برحت حتى نزل القرآن فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خولة أبشرى، قالت خيراً فقرأ عليها «قَدْ سَمِعَ اللهُ» الآيات.

روى البخارى فى تاريخه أنها استوقفت عمر يوماً فوقف، فأغلظت له القول، فقال رجل يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم، فقال رضى الله عنه، وما يمنعنى أن أسمع إليها وهى التى استمع الله لها، فأنزل فيها ما أنزل «قَدْ سَمِعَ اللهُ» الآيات. والشارع اعتبر الظهار يمينا وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى:

- (١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .  
 (٢) صيام شهرين متواليين إن لم يجد ما يعتقه .  
 (٣) إطعام ستين مسكينا إن لم يستطع الصوم الكبير أو مرض لا يرجى زواله ،  
 لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلاث) أو صاع من تمر أو شعير .

## الإيضاح

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتمكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) أى قد قبل الله شكوى التي جادلت رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن زوجها ، وبثت أمرها إلى ربها ، وسمع ما سمع من تحاورها مع رسوله ، والله سميع لما يقال ، خير بحال عباده ، فأنزل فيها ما أزال غصتها ، وفرج كربتها ، وأقر به عينها ، وبل ريقها ، وأرجع إلى كفها صبيتها ، الذين كانوا مصدر شقوتها ، وبهم اعتلت (تعالت واحتجت) على رسوله .

وقد فصل ما أنزل من الحكم في حادتها وأمثالها فقال :

(الذين يظاهرون منكم من نسائهم) أى الذين يقع منهم الظهار من نسائهم ، فيقول أحدهم لامرأته : أنت على كظهر أمى ، يريد أنك على حرام ، كما أن أمى على حرام — مخطئون فيما صنعوا .

(ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم) أى ما نسأوهم أمهاتهم على الحقيقة فكيف يجعلونهن كذلك ، ما أمهاتهم إلا من ولدنهم ، فلا ينبغي تشبيههن بهن . ثم زاد الأمر إيضاحا وبالغ في الاستهجان فقال :

(وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) أى وإنهم ليقولون قولاً منكراً لا يبيحه شرع ، ولا يرضى به عقل ، ولا يوافق عليه ذو طبع سليم ؛ فكيف تشبه من يسكن إليها وتسكن إليه وجعل بينه وبينها مودة ورحمة ، وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت ، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم ، إلى

أن الرجل قوَّام على المرأة له حق تأديبها إذا عوجَّت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت ولم يُعْط ذلك لابن ليعامل به أمه ، فهذا زور وبهتان عظيم .

وغير خاف ماقى هذا من الاستهجان ، وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم .

( وإن الله لعفوٌ غفور ) لما سلف من الذنب متى تاب فاعله منه .

ثم فصل حكم الظهار فقال :

(١) ( والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ) أى والذين يقولون هذا القول المنكر ثم يتداركونه بنقضه ويرجعون عما قالوا فيريدون المسيس فعلى كل منهم عتق عبد أو أمة قبل التماس إن كان ذلك لديه . ثم بين السبب فى شرع هذا الحكم فقال :

( ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ) أى إنه شرع لكم حكم الكفارة عند طاب العودة إلى المسيس ، ليكون ذلك زاجرا لكم عن ارتكاب المنكر ، فإن الكفارة تمنع من وقوع الجرم ، والله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شئ منها ، وهو مجازيكم بها ، فاتهبوا عن قول المنكر ، وحافظوا على ما شرع لكم من الحدود ، ولا تخلوا بشئ منها .

(٢) ( فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ) أى فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فاضلا عن قدر كفايته ؛ فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس ، فإن أفطر يوما من الشهرين ولو اليوم الأخير لعذر أو مرض أو سفر لزمه الاستئفاف بصوم جديد لزوال التتابع .

(٣) ( فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ) أى فمن لم يستطع صيام الشهرين المتتابعين لكبر سن أو مرض لا يرجى زواله — فعليه إطعام ستين مسكينا لكل منهم نصف صاع من بُرٍّ ، أو صاع من شعير أو تمر قبل التماس أيضا . ( ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ) أى ذلك

الذى بيّناه لكم من وجوب الكفارة حين الظهار ، لتقروا بتوحيد الله وتصدقوا رسوله وتنتهوا عن قول الزور والكذب ، وتنبهوا ما حده الدين من حدود ، وبينه لكم من فرائض ، وللجاحدين بهذه الحدود وغيرها من فرائض الله عذاب مؤلم على كفرهم بها .

وأطلق اسم (الكافر) على متعمد هذه الحدود تغليظاً للزجر كما قال في التهانون في أداء فريضة الحج « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ  
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى  
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ  
وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ  
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) .

### شرح المفردات

يحادون : أى يشاقون ويعادون ، وأصل الحادّة اللانعة ؛ ومنه قيل للبواب حداد ،  
كبتوا : أى خذلوا ، وقال المبرد: كبت الله فلانا إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت ،  
آيات بينات : أى حججاً وبراهين مبينة لحدود شرائعنا ، مهين : أى يلحق بهم  
المهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا : أى يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريماً لهم ، أحصاه  
الله : أى أحاط به عدداً لم يرغب عنه شيء منه ، شهيد : أى مشاهد لا يخفى عليه شيء .

ألم تر: أى ألم تعلم، ما يكون: أى ما يوجد، والنجوى: التناجى والمساراة كما قال:  
«لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ» وقد يستعمل فى المتناجين كما قال: «وَإِذْهُمْ  
نَجْوَى» أى أصحاب نجوى.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار وبين أنه إنما شرعها تغليظاً للناس حتى  
يتركوا الظهار، وقد كان ديدنهم فى الجاهلية، ويتبعوا أوامر الشريعة، ويلين قيادهم  
لها، ويخلصوا لله ربهم فى جميع أعمالهم، فتصفو نفوسهم، وتزكو بصالح الأعمال.  
أردف هذا بيان أن من يشاق الله ورسوله ويعصى أوامره، يلحق به الخزى والهوان  
فى الدنيا وله فى الآخرة العذاب المهيّن فى نار جهنم؛ ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد،  
فبين أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، فهو عليم بمناجاة المتناجين،  
فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم، وإن كانوا أقل من ذلك  
أو أكثر فهو معهم أينما كانوا، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم، وسينبئكم بها عند  
العرض والحساب، وحين ينصب الميزان، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم،  
وتندمون ولات ساعة مندم.

## الإيضاح

(إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم) أى إن الذين  
يختارون لأنفسهم حدوداً غير ما حده الله ورسوله، ويضعون شرائع غير ما شرعه،  
سيلاحقهم الخزى والنكال فى الدنيا كما لحق من قبلهم من كفار الأمم الماضية الذين  
حادوا الله ورسوله، وقد تحقق ذلك يوم الخندق.

وفى هذا بشارة للمؤمنين بظهورهم على عدوهم ونصر الله لهم.

كما أن فيه وعيدا عظيما للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا قوانين وشرائع وضعية غير ماشرع الله ، وألزموا رعاياهم العمل بها ، والجرى على نهجها ، وعمِنوا لذلك قضاة يحكمون بها ، وينذوا ماجاء في شرعهم ، والله يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

نعم إنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات ، إذا كانت لا تخالف في أحكامها روح التشريع الديني كمتعيين مراتب التأديب للزجر على المعاصي ، والجنائيات التي لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فيها للإمام ، وليس في ذلك محادة لله ورسوله ، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل .

(وقد أنزلنا آيات بينات) أى وكيف يفعلون ذلك وقد أقمنا دلائل واضحات تبين معالم الشريعة وتوضح حدودها ، وتفصل أحكامها ، وتبين سرّ تشريعها ؟ فلا عذر لهم في مخالفتها ، والانحراف عن سنتها .

(وللكافرين عذاب مهين) أى وللجاحدين بتلك الآيات عذاب يذهب بعزهم وكبرياتهم .

والخلاصة — إن هؤلاء المخادين عذابا في الدنيا بالخزى والهوان ، وعذابا في الآخرة في جهنم وبئس القرار .

(يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شيء شهيد) أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيرا لهم وخزيا على رؤوس الأشهاد ، والله قد حفظه وضبطه وهم قد نسوه ، والله شهيد على كل شيء ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا يفتنى شيئا .

وفي هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم والتنذيم ، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب ، إنما كان من جراء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

ثم أكد ما سبق من إحاطة علمه تعالى بكل شيء فقال :

(ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) أى ألم تعلم أنه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض ، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون ، ولا خمسة إلا وهو سادسهم يعلم ما به يتناجون ، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منها إلا وهو عليم بها ، وعليم بزمانها ومكانها لا يخفى عليه شيء من أمرها .

وإنما خص هذه الأعداد ، لأن أقل ما لابد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تدبير المصالح العامة — ثلاثة فيكون الاثنان كالمتنازعين نفيًا وإثباتًا ، والثالث كالحكم بينهما ، وحينئذ تكمل المشورة ويتم الغرض ، وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشورة لابد من واحد يكون حكمًا مقبول القول ، ومن ثم يكون عدد رجال المشورة فردا كما جاء في الآية ونحوها قوله : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » وقوله : « أَلَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى وَرُسُلْنَا لَنَسْمَعُهُمْ يُكْتَبُونَ » .

(ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) أى ثم ينبئ هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة، وإنه لعليم بنجواهم وأسرارهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم .

وقد علمت أن هذا الإنباء إنما هو للتنديم وزيادة التقريع والتوبيخ على مرأى ومسمع من أهل الموقف ، فيكون ذلك أنكى وأشد إيلامًا لهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِأَلْمٍ يُحْيِكَ بِهِ

اللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ  
يَصْلَوْنَهَا فَبئسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا  
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ  
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) .

### شرح المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى بما هو معصية وذنب ،  
والعدوان : الاعتداء على غيرهم كعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى هلا  
يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى  
يقاسون حرَّها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من  
أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ،  
ومجازيهم على ما يكون به التناجى — خاطب رسوله معجباً له من اليهود والمنافقين  
الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا  
بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيّوه بغير  
تحية الله ، فيقولون له : السام عليك (يريدون الموت) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان  
رسولاً لعذبنا الله للاستخفاف به ، وإن جهنم لكافية جد الكفاية لعذابهم : ثم نهى  
المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى  
بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضيرهم شئ منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكّلوا .

## الإيضاح:

(ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) « روى أن اليهود كانوا إذا سر بهم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون فيما بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره ، حتى إذا رأى ذلك خشيمهم ، فترك طريقهم ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى فأنزل الله الآية » .  
ثم بين ما به يتناجون فقال :

(ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أى وهم يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم في نفسه ووباله عليهم ، وبما هو تعدٍ على المؤمنين ، وتواص بمخالفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .  
ثم ذكر جرماً آخر يقع منهم فقال :

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة « أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال عليه السلام : وعليكم ، قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، فقلت : ألا تسمعهن يقولن السام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أو ما سمعت ما أقول : وعليكم ؟ فأزل الله تعالى (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ) الآية » .

(ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وهم يريدون شتمه ، ويحدثون أنفسهم أنه لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول ، لأن الله يعلم ما نسمره ، فلو كان نبياً حقاً عاجلنا بالعقوبة فى الدنيا فرد الله عليهم بقوله :

(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أى وإن جهنم وما فيها من العذاب الأليم لكافية لعقابهم ونكالهم ، وقد أجل عذابهم إلى هذا اليوم .

ثم قال تعالى مؤدبا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل اليهود والمنافقين فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أي إذا حدث منكم أيها المؤمنون تفاج ومسارة في أئديتكم وخلواتكم ، فلا تفعلوا كما يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين .  
(وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون) أي وتناجوا بما هو خير واتقوا الله فيما تأتون وما تدرن ، فإليه تحشرون فيجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم ، وسيجزىكم بها .

ثم بين الباعث لهم على هذه النجوى والمزين لهم ذلك فقال :

(إنما النجوى من الشيطان) أي إنما التناجى بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان وتزيينه .

ثم ذكر السبب الذي حداه إلى ذلك فقال :

(ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا يأذن الله) أي إنما نعل ذلك يسوء الذين آمنوا بإيهاهم أن ذلك في نكبة أصابتهم ، وليس الشيطان بضار المؤمنين شيئا إلا بإرادة الله ومشيتته .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي إن ما يتناجى به المنافقون مما يحزن المؤمنين إن وقع ، فإنما يكون بإرادة الله ومشيتته ، فلا يكثرن المؤمنون بتناجيتهم ، وليتوكلن على الله ولا يحزنن .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى إذا كان في ذلك أذى لمؤمن . أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا  
 يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
 مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) .

### شرح المفردات

تفسحوا : أى توسعوا وليفسح بعضهم عن بعض ، من قولهم : افسح عني أى تنحّ ،  
 يفسح الله لكم : أى فى رحمته ويوسع لكم فى أرزاقكم ، انشروا : أى انهبضوا للتوسعة  
 على المقبلين ، فانشروا أى فانهضوا ولا تتباطئوا ، يرفع الله الذين آمنوا : أى يرفع  
 منزلاتهم يوم القيامة ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات ، أى ويرفع العالمين منهم خاصة  
 درجات فى الكرامة وعلو المنزلة .

### المعنى الجملى

بعد أن نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض من التماجي بالإنم  
 والعدوان — أمرهم بما يكون سبب التواد والتوافق بين بعض المؤمنين وبعض :  
 من التوسع فى المجالس حين إقبال الوافد ، والانصراف إذا طلب منكم ذلك .  
 فإذا فعلتم ذلك رفع الله منازلكم فى جناته ، وجعلكم من الأبرار الذين لاخوف  
 عليهم ولاهم يحزنون .

### الإيضاح

( 'يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم )  
 أى يأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله ، إذا قيل لكم توسعوا فى مجالس رسول الله  
 أو فى مجالس القتال ، فافسحوا يفسح الله فى منازلكم فى الجنة .

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : « كان صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة في الضُّعَّةِ وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس منهم ثابت بن قيس وقد سُبِقُوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فأقام نفرًا بمقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وطعن المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوما أخذوا بمجالسهم وأحبوا القرب منه ، أقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت الآية » .

وقال الحسن : كان الصحابة يتشاحون في مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة ، ومن الآية نعلم :

(١) أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه ، لما فيه من الخير العميم ، والفضل العظيم ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى » .

(٢) الأمر بالتفسيح في المجالس وعدم التضام فيها متى وُجد إلى ذلك سبيل ، لأن ذلك يدخل المحبة في القلوب ، والاشترائك في سماع أحكام الدين .

(٣) إن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة .

وعلى الجملة فالآية تشمل التوسع في إيصال جميع أنواع الخير إلى المسلم وإدخال السرور عليه ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام « لا يزال الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » .

(وإذا قيل انشروا فانشروا) أى وإذا دعيتم إلى القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوموا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤثر الانفراد أحيانا لتدبير شئون الدين ، أو لأداء وظائف تخصصه لا تؤدى أو لا يكمل أداؤها إلا بالانفراد .

وقد عمموا هذا الحكم فقالوا : إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه قوموا ينبغي أن يجاب .

ولا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه ؛ فقد أخرج مالك والبخارى ومسلم والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) أى يرفع الله المؤمنين بامثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة درجات كثيرة في الثواب ومراتب الرضوان .

وإخلاصة — إنكم أيها المؤمنون إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، فلا يظن أن ذلك نقص في حقه ، بل هو رفعة وزيادة قربى عند ربه ، والله تعالى لا يضيع ذلك بل يجزى به في الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره .

(والله بما تعملون خبير) أى والله بأعمالكم ذوخبرة لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي ، وهو مجازيكم جميعاً بأعمالكم ، فالحسن بإحسانه ، والمسيء بالذى هو أهله أو يعفوه .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدْقَةً ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدْقَاتٍ ،

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

## شرح المفردات

ناجيتم الرسول : أى أردتم مناجاته والحديث معه ، فقدموا بين يدي تجواكم  
صدقة : أى فتصدقوا قبلها ، أظهر : أى أزكى ، التعويد النفس بذل المال وعدم الضن  
به ، أسفقتم : أى خفتم ، تاب الله عليكم : أى رخص لكم فى المناجاة من غير  
تقديم صدقة .

## المعنى الجملى

علمت من الآية السانفة أن المؤمنين كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماح أحاديثه وللمناجاة فى أمور الدين ، وأكثروا  
فى ذلك حتى شقّ عليه صلى الله عليه وسلم وشغلوا أوقاته التى يجب أن تكون موزعة  
بين إبلاغ الرسالة والعبادة ، والقيام ببعض وظائفه الخاصة ، فإنه بشر يحتاج إلى قسط  
من الراحة ، وإلى التحنث إلى ربه فى خلواته .

من أجل هذا نزلت هذه الآيات أمرت بوجوب تقديم الصدقات قبل المناجاة  
الرسول والحديث معه ، لما فى ذلك من منافع ومزايا :

(١) إعظام الرسول وإعظام مناجاته ، فإن الشئ إذا نبيل إذا نبيل مع المشقة استعظم ،  
وإن نبيل بسهولة لم يكن له منزلة ورفعة شأن .

(٢) نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة .

(٣) تمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا - من المؤمنين  
حقّ الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم .

قال ابن عباس : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، وأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل هذه الآيات فكف كثير من الناس عن المناجاة .

## الإيضاح

( يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يديكم صدقة ) أي أيها المؤمنون إذا أراد أحد منكم أن يناجي الرسول ويسأله فيما بينه وبينه - فليقدم صدقة قبل هذا ، لما في ذلك من تعظيم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع الفقراء والتمييز بين المؤمن حقا والمنافق ، ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا ، ومن دفع التكاثر عليه صلى الله عليه وسلم من غير حاجة ملحة إلى ذلك .

ثم ذكر العلة في هذا فقال :

( ذلك خير لكم وأطهر ) أي إن في هذا التقديم خيرا لكم لما فيه من الثواب العظيم عند ربكم ، ومن تركيبة النفوس وتطهيرها من الجشع في جمع المال وحب ادخاره ، وتعويدها بذله في المصالح العامة كإغاثة المهوف ، ودفع خصاصة فقير ، وإعانة ذي حاجة ، والنفقة في كل ما يرقى شأن الأمة ويرفع من قدرها ، ويعلى كلمتها ، ويؤيد الدين وينشر دعوته .

ثم أظام العذر للفقراء فقال :

( فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ) أي فإن لم تجدوا الصدقة أيها الفقراء وعجزتم عن ذلك فإله قد رخص لكم في المناجاة بلا تقديم لها ، لأنه ما أمر بها إلا من قدر عليها .

وقد شرع هذا الحكم لتمييز الخاص من المنافق ، فإما تم هذا الغرض انتهى ذلك الحكم ورخص في المناجاة بدون تقديم صدقة ، فقال :

(ءأشققتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) أى أبخاتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم الصدقات ، ووسوس لكم الشيطان أن فى هذا الإنفاق ضياعا للمال ؟  
 (فأذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) أى فحين لم تفعلوا ما أمرتم به ، وشق ذلك عليكم ، خفف عليكم ربكم فرخص فى المناجاة من غير تقديم صدقة ، فتداركوا ذلك بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما قال :

(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) أى فأدوا الصلاة وقوموها بأدائها على أكمل الوجوه ، لما فيها من الإخبات إلى الله والإنابة إليه والإخلاص له فى القول والعمل ، ونهياها عن الفحشاء والمنكر ، ولما فى الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشح بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام .  
 وأطيعوا الله فيما يأمركم به من الفرائض والواجبات ، وبينها كم عنه من اللوبات .  
 ثم وعد وأوعد فقال :

( والله خير بما تعملون ) فهو محيط بنواياكم وأعمالكم ، ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير أو شر ، كما قال « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الأَوْفَى » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ نُعْطِيَهُمْ أَموالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ

اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ،  
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ  
 ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ  
 هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) .

### شرح المفردات

ألم تر : أى أخبرنى وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة  
 للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا: المنافقون، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ،  
 والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرده من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم :  
 أى لأنهم مذنبون ، على الكذب : أى على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى  
 وقاية وسترا عن المؤاخذة ، على شئ : أى من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ  
 على الشئ : حواه وأحاط به ؛ قال المبرد ويقال حاوزت الإبل وحزمتها إذا استوليت  
 عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذيا نسيج وحده : أى سائسا ضابطا  
 للأمور لانظيره ، فأنساهم ذكر الله : أى لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من  
 الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتنافسون فى القرب  
 من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقى الدين عنه والاهتداء بهديه حتى كان  
 يضيّق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا - ذكر هنا حال قوم من المنافقين  
 يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لقوا  
 المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون

في كل ما يقولون وقد جعلوا الإيمان وقاية لسترا ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا  
 خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن  
 الله قد أعد مثل هؤلاء عذابا شديدا يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد في الدنيا لن  
 يغنى عنهم شيئا حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذي جرائهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد  
 استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم عذاب اليوم الآخر ؛ ثم ذكر  
 أن أولئك هم جنود الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح في شيء ، وسيرد الله عليهم  
 كيدهم في نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون .

### الإيضاح

( ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ) أى أخبرني عن حال هؤلاء  
 المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين؛ إن حالهم  
 لتستدعى العجب ، يقابلون كل قوم بوجه ، فهم مع اليهود نصحاء أمناء يبلغونهم  
 ما يعرفونه من دخائل المؤمنين اكتسابا لصدقاتهم وودعهم ، ومع المؤمنين مؤمنون  
 مخلصون قد بلغ الإيمان قرارة نفوسهم ، وملك عليهم مشاعرهم وحواسهم ؛ والحقيقة  
 أنهم يمدعون الفئتين كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

( ما هم منك ولا منهم ) أى فلا هم بالمؤمنين حقا بل هم مؤمنون من طرف  
 اللسان مداراة للمؤمنين وخوفا من بطشهم ، ولا هم مع اليهود ، لأنهم لا يعتقدون  
 أنهم على الدين الحق ، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عرض الدنيا ،  
 وأن يحتفظوا بمودتهم إذا احتاجوا إليها ، فهم كما قال الله فيهم : « مَذْبذِبِينَ بَيْنَ  
 ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ » وفي الخبر « مثل المنافق مثل الشاة العائرة  
 بين غنمين » أى المترددة بين قطيعين « لا تدرى أيهما تتبع »

ثم ذكر أنهم يؤكدون إيمانهم وإخلاصهم بالأيمان الكاذبة فقال :

(ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) أى وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا إنا آمننا  
وإذا جاء الرسول حلفوا وقالوا له : نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنهم لكاذبون  
فيما يقولون ، لأنهم لا يعتقدون صدقه .

ثم ذكر ما لهم وبين ما يلقون من النكال والويل فقال :  
( أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون ) أى أرسد الله لهم نكالا  
وعذابا أليما جزاء صنيعهم بفش المسلمين وإطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم .  
ثم ذكر ما جعلوه تسكاة لهم على تصديقهم فقال :

( اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ) أى أظهروا الإيمان وأبطنوا  
الكفر واستروا بالإيمان الكاذبة ، فظن كثير من لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم  
صادقون ؛ وبهذه الوسيلة صدوا كثيرا من الناس عن سبيل الله بتبسيط من لقوا عن  
الدخول في الإسلام بتحقيق شأنه في نظرهم .  
ثم بين ما كافأهم به على عملهم فقال :

( فلهم عذاب مهين ) أى فلهم عذاب يلحقهم به الذل والهوان في النار جزاء  
ما امتنوا اسمه الكريم بالخلف به كذبا .  
ثم أرشد إلى أن ما ظنوه منجيا لهم من عذاب الله من المال والأولاد - ليس  
بمنافع لهم حينئذ فقال :

( لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها  
خالدون ) أى لن تغنى عن هؤلاء المنافقين الأموال فيفتدوا بها من عذاب الله ،  
ولا الأولاد فينصروهم وينقذوهم من العذاب إذا هو عاقبهم ، فأولئك هم أهل النار  
وهم خالدون فيها أبدا ، وقد تقدم مثل هذا في غير موضع من الكتاب الكريم .  
( يوم يجمعهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ) أى وأذكر لهم أيها الرسول  
حالمهم يوم يجمعهم الله جميعا من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ، فيحلفون له

قائلين : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا إنهم  
مؤمنون مثلكم .

( ويحسبون أنهم على شيء ) أى ويعتقدون أن ذلك نافع لهم ، فيجلب لهم  
الخير ، ويدفع عنهم الضرر ، كما كان ذلك شأنهم في الدنيا ، إذ كانوا يدعون بتلك  
الأيان الفاجرة عن أرواحهم وأموالهم ويحصلون على فوائد دنيوية أخرى .  
ثم رد عليهم منكرها لهم فقال :

( ألا إنهم هم الكاذبون ) فيما يحلفون عليه زعما منهم أن أيمانهم الفاجرة تروج  
الكذب لديه تعالى ، كما تروجه لدى المؤمنين في الدنيا .

ونحو الآية قوله : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا  
مُشْرِكِينَ . أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .  
ثم بين السبب الذى أوقعهم فى الردى وأوصلهم إلى قرارة جهنم فقال :

( استعوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ) أى غلب على عقولهم بوسوسته  
وتزيينه حتى اتبعوه ، فلم يمكنهم من ذكر الله واتباع أوامره وترك نواهيه ، بما زين  
لهم من الشهوات فأوقعهم فى دركات جهنم ، وبئس المصير .

( أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ) أى أولئك  
هم جنود الشيطان وأعوانه ، وإن جنده لهم الهالكون المغبونون فى صفتهم ، إذ هم  
قد فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، واستبدلوا به العذاب الأليم ، وليس من دأب  
العاقل أن يقبل مثل هذا نفسه .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ  
اللَّهُ لَأَعْلَبِينَ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ

أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ  
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ  
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

### شرح المفردات

يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى فى جملة أذل خلق الله ،  
لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر ، كتب الله : أى قضى وحكم ،  
لأغلبين : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قوامهم ، بروح من عنده : أى بنور  
يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذبا إنهم مؤمنون ، ويماثلون  
المؤمنين طورا واليهود طورا آخر اكتسابا لرضا القرىقين ، ثم بين أن الذى حملهم  
على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب له من  
تعظيم ووجوب اعتقاد باليوم الآخر ، ثم حكم عليهم بأن صفتهم خاسرة ، لأنهم  
باعوا الباقى بالقانى والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبدا سرمدا - بين هنا سبب  
خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمرهما ، فكتب عليهم الذلة فى الدنيا  
والآخرة ، إذ قد قضى بأن العزة والقلب له ولرسله ، والذلة لأعدائه ؛ ثم ذكر أن  
الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاته أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء  
أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم  
العزة ، وقوام ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصرو دينه ،

وحزب الله مفلح لا محالة وقد كتبت له السعادة في الدارين كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

## الإيضاح

( إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ) أى إن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه ، ويمتنعون عن أداء ما فرض عليهم من فرائضه ، هم في جملة أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ورسوله ، ودلهم في الدنيا يكون بالقتل والأسر والإخراج من الديار كما حصل للمشركين واليهود ، وفي الآخرة بالخزى والنكال والعذاب الأليم كما قال سبحانه : « رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »

وفي هذا إشارة للمؤمنين بأنه سيظهرهم على عدوهم ويكتب لهم الفوز ويكونون هم الأعراء وسواهم الأذلاء .

ثم أكد ماسلف بقوله :

( كتب الله لأغلين أنا ورسلي ) أى قضى الله وحكم في أم الكتاب بأن الغلبة بالحقبة والسيف وما يجرى مجراها تكون لله ورسوله ، فقد أهلك كثيرا من أعدائهم بأنواع من العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم ( والحرب بين نبينا وبين المشركين ، وإن كانت سجالا كانت العاقبة فيها له عليه الصلاة والسلام ) ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سننه ، محافظين على الحدود التي أمروا بها ، وجاهدوا عدوهم جهادا خالصا لله على نحو جهاد الرسل ، لا لطلب ملك وسلطان ، ولا لطلب دنيا ومال . وعن مقاتل قال : لما فتح الله تعالى مكة للمؤمنين والظانف وخبير وما حولها ، قالوا نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي راس المنافقين : أتظنون أن فارس والروم كيعض القرى التي هلكتم عليها ؟ والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ هُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ، وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ » .

( إن الله قوى عزيز ) أى إن الله الذى له الأمر كله — قوى على نصر رسله لا يُغْتَاب على مراده ، فمضى أراد شيئاً كان ولم يجد معارضا ولا مانعا كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

( لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ) أى لا تجد قوما يجتمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وموادة أعداء الله ورسوله ، لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ، إذ من كان مؤمنا حقا لا يوالى كافرا ، فمن أحب أحدا امتنع أن يوالى عدوه ، والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له فى الدين والدنيا ، أما الملاحظة والمعاشرة فليست بمحظورة ؛ ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد ، فإننا نرى الأمم الإسلامية أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال أفريقيا وفى مصر وغيرها يوالون الإفريقية وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ولو كان فى هذا ذل لهم ولدينهم وأمتهم ، ولن يزول هذا إلا بالاستشعار بالعمة والكرامة القومية والدفاع عن حوزة الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم بالغ فى الزجر وأبان أنه لا يتبغى لمؤمن أن يفعل ذلك ولو مع الأقارب كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، أو الأبناء الذين هم فليات الأاكباد ، أو الإخوان الذين هم الناصرون لهم ، أو العشيرة الذين يعتمد عليهم بعد الإخوان .

والخلاصة — إنه لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله ، لأن من أحب أحدا امتنع من محبة عدوه ، فإذا حصل فى القلب موادة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح وكان صاحبه منافقا .

أخرج الطبراني والحاكم والترمذي مرفوعاً « يقول الله تبارك وتعالى : وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ، ويعاد أعدائي » وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لغاش على يدي ولا نعمة فيودّه قلبي ، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ : لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله » .

وقيل إن الآيات نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة سبّ النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكة سقط بها على وجهه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال نعم ، قال لا تعدّ ، قال والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته .

وقيل نزلت في أبي عبيدة بن عبد الله الجراح ، أخرج ابن حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : جعل والد أبي عبيدة يتصدى له يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت : ( لا تجد قوماً ) الآية .

( أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ) أي أولئك الذين سلفت أوصافهم أثبت الله في قلوبهم الإيمان ، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يوادّ من حادّ الله ورسوله . وفي هذا مبالغة في الزجر عن موادة أعداء الله .

ثم ذكر سبباً آخر يمنع من موادتهم فقال :

( وأيدهم بروح منه ) أي إنه قواهم بطمأنينة القلب والثبات على الحق ، فلا يبالون بموادة أعداء الله ولا يابهون لهم .

ثم ذكر ما أعدّه لهم من النعيم المقيم فقال :

( ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ) أي ما كثين فيها أبداً .

ثم ذكر السبب فيما أفاض الله عليهم من نعمة فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى أعادق عليهم من رحمته العاجلة والآجلة ، فأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ورضوا عنه لابتهاجهم بما أوتوه عاجلا وآجلا ، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر فى الله تعالى — عوضهم الله بالرضا عنه ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم . ثم أشاد بتشريفهم فجعلهم جنده تعالى فقال :

(أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) أى أولئك أنصار الله وجنده وأهل كرامته ، وهم أهل الفلاح والسعادة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

### خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) ألفة الأزواج فى المنازل .
- (٢) ألفة الأصحاب فى المجالس .
- (٣) الأدب مع الحكام بترك مضايقتهم ، لكثرة أعمالهم .
- (٤) رفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمرا يُثقلهم .
- (٥) مجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها وينذلها .

## سورة الحشر

هي مدنية ، وعدة آياتها أربع وعشرون نزلت بعد سورة البينة .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن في آخر السالفة قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِينَ أَنَا وَرُسُلِي » وفي أول

هذه قال : « فَأَنآهُمُ اللَّهُ مِن حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » .

(٢) إن في السابقة ذكر من حادَّ الله ورسوله ، وفي أول هذه ذكر من شاقَّ

الله ورسوله .

(٣) إن في السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا ، وفي هذه

ذكر ما حل باليهود ، وعدم غناء تولى المنافقين إياهم . « روى أن بني النضير كانوا

قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر

قالوا هو النبي الذي نعت في التوراة ، لا ترد له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أحد

ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة خالفوا عليه

قريشا عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر بقتل كعب

فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطلع منهم على

خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين من بني عامر عند منصرفه من بدر معونة ،

إذ هموا بطرح حجر عليه فعصمه الله .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهبوا المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل في بني النضير

وجدهم ينوِّسون على كعب ، وقالوا ذرنا نبكي شجعونا ، ثم اتَّمر أمرك ، فقال : أخرجوا

من المدينة ، فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ، ودس المنافقون

عبد الله بن أبي وأضرابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوك فنحن معكم ،

وإن أخرجتم للخرجن معكم ، فخصنوا الأزقة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، وقذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة آيات على بعير ماشاءوا من متاعهم ، فجلوا إلى الشام ، إلى أريحاء وأذرعات ، إلا أهل يثيب منهم هما آل أبي الحقيق وآل حُيَ بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالخيرة ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم أموالهم وسلاحهم ، فوجد خمسين درعا وخمسين بيضة »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)  
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَاعَةً عَلَى أُسُوبِهَا فَيُيَادِنِ اللَّهُ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

### شرح المفردات

الذين كفروا : هم بنو النضير (بنزة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كني قرظلة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى في أول حشرهم ،

أى جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر: إجلاء عمر إياهم من خير إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلمة المشيدة ، مانعتهم حصونهم من الله : أى مانعتهم من بأسه وعقابه ، فاتاهم الله : أى جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا: أى من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقذفُ الشيء: رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه في قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر يخرجون : أى يهدمون ، فاعتبروا : أى فاتفظوا ، والاعتبار: النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وأجلبت القوم عن منازلهم : أى أخرجتهم منها ، وجلوا: خرجوا ، وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا لجماعة ، والثانى : يكون لواحد ولجماعة ، وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما ، واللينه : النخلة ما لم تكن عجوة .

### المعنى الجملى

علمت مما سلف أن اليهود نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين اتكالا على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم، فتبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسارقتاهم، فلما علموا بقدمه حصنوا الأزقة فحاصروهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب في قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء وأخرجهم من حصونهم بعد تخزيبها بأيديهم وأيدي المؤمنين، ولولا جلاؤهم لعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، ولهم في الآخرة عذاب شديد، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمر وفق الحكمة والمصاحمة .

### الإيضاح

(سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) أى إن جميع ما فى السموات والأرض من الأشياء يقده سبحانه ويمجده ، إما باللسان أو بالقلب أو بدلالة الحال لانتقياده لتصرفه له كيف شاء لامعقب لحكمه .

ونحو الآية قوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .  
ثم بين بعض آثار عزته ، وأحكام حكمته فقال :

( هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر )  
أى هو الذى أجلى بنى النضير من المدينة بقوة عزته ، وعظيم سلطانه ، وكان هذا أول مرة حشروا فيها وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم النذل قبلها ، لأنهم كانوا أهل عزة ومنعة ، وآخر حشر لهم إجلاء عمر رضى الله عنه لهم من خيبر إلى الشام .  
ثم بين فضل الله على المؤمنين ، ونعمته عليهم فى إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظراً فقال :

( ماظنتم أن يخرجوا ) أى ماخطر لكم ذلك أيها المؤمنون بهال ، لشدة بأسهم ومنعتهم ، وقوة حصونهم ، وكثرة عددهم وعددهم .

وفى ذكر هذا تعظيم للنعمة ، فإن النعمة إذا جاءت من حيث لا تُرتقب كانت مكاتبا فى النفوس أعظم ، وكانت بها أشد سروراً وابتهاجاً .

والمسامون ماظنوا أن يبلغ الأمر بهم إلى إخراج اليهود من ديارهم ، ويتخلصوا من مكائدهم وأشرأكهم التى ما فتئوا ينصبونها للمؤمنين ، وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذى لامرئاً له ، وصدق الله ( لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ) .

ثم ذكر ما جرأهم على مشاكسة النبي صلى الله عليه وسلم وتأليب المشركين عليه فقال :

( وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ) أى وظن بنو النضير أن حصونهم المنيعة القوية تمنعهم من أن ينالهم عدو بسوء ، فلا يستطيع جيش مهما أوتى من بأس أن يصل إليهم بأذى ، فاطمأنوا إلى تلك القوة ، وأوقدوا نار الفتنة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، طمعاً فى القضاء عليه ، بعد أن أصبحت له الزعامة

الدينية والسياسية في المدينة ، وسيكون في ذلك القضاء عليهم لو صبروا ، وقد غبروا دهنًا وهم أصحاب السلطان فيها ، لأنهم من وجه أهل كتاب ، ومن وجه آخر هم أرباب النفوذ المالى فيها ، وأصحاب الثروة والجاه العريض .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

( فأتاكم الله من حيث لم يحتسبوا ) أى فجاءهم بأس الله وقدرته الذى لا تدفع

من حيث لم يخطر ذلك لهم ببال ، وصدق فيهم ما قيل : قد يُؤتى الخدِر من مأمنه . فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فذهبت طائفة منهم إلى أذربعات من أعلى الشام ، وطائفة إلى خيبر على أن يأخذوا معهم ما حلت إيلهم .

ثم بين أسباب هذا الاستسلام السريع ، والنزول على حكم الرسول على مناعة الحصون وكثرة العدد والعدد فقال :

( وقذف في قلوبهم الرعب ) أى بث في قلوبهم الهلع والخوف حين جاء

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليهم ، فلم يستطيعوا إلى المقاومة سبيلا .

وما كان له بالغ الأثر في هذا الخوف قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غيلة ، وما رأوه من كذب وعد عبد الله بن أبى رأس المنافقين في نصرتهم ، وإرسال المدد إليهم ، وتغريه بهم ، وتوسيع مسافة الخلف بينهم وبين الرسول ، فهم قد أوقدوا نارا كانوا هم حطب ههنا ، وفتحوا ثغرة بنوهم قد سدوها ، ووقعوا في حفرة هم الذين كانوا قد حفروها ، فابتلعهم لا إلى رجعة .

ثم بين مدى ما لحقهم من الهلع والجزع ، وكيف حاروا في الدفاع عن أنفسهم فقال :

( يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ) أى يخربون بيوتهم بأيديهم ليسدوا

بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة حتى لا يدخلها العدو ، وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم ، ولينقلوا بعض أدواتها التى تصالح للاستعمال في جهات أخرى كالخشب والعمد والأبواب ، ويخربها المؤمنون من خارج ليدخلوها

عليهم ، ويزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال القتال ، ويكون في ذلك عظيم التنكيل والغيظ لهم .

ثم ذكر ما يجب أن يجعله العاقل نُصِبَ عينيه من عظة واعتبار فقال :

(فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى فاتمظوا يا ذوى البصائر السليمة ، والعقول الراجحة ، بما جرى لهؤلاء من أمور عظام ، وبلاء ما كان يخطر لهم ببال ، بأسباب تحار في فهمها العقول ، ولا يصل إلى كنهه حقيقة ذو الآراء الحصيفة ، وابتعدوا عن الكفر والمعاصى التى أوقعتهم فى هذه المهالك ، فالسعيد من وُعِظَ بغيره ، وإياكم والغدر ، والاعتماد على غير الله ، فما اعتمد أحد على غيره إلا ذلَّ .

ثم بين أن الجلاء الذى كتب عليهم كان أخف من القتل والأسر فقال :

(ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار) أى ولولا أن الله قدّر جلاءهم من المدينة ، وخروجهم من أوطانهم على هذا الوجه المهيّن ، لعذبهم فى الدنيا بما هو أفظع منه من قتلٍ وأسْر كما فعل مع المشركين فى رقعة بدر ، وكما فعل مع بنى قريظة فى سنة خمس للهجرة ، كفاء غدرهم وخيانتهم ، وتآليب المشركين على المؤمنين ، والسعى فى إطفاء نور الإسلام حتى لا تقوم لهم قائمة — إلى ما أعد لهم من عذاب مقيم ، ونكال وجحيم ، حين تقوم الساعة ، وتجازى كل نفس بما كسبت .

ثم بين السبب فيما حل بهم وذكر علته فقال :

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى إنه إنما فعل ذلك بهم ، وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزله على رسله المتقدمين من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

ثم ذكر ما ل من يعادى الله ورسوله فقال :

(ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) أى ومن يعاد الله فإن الله يماقيه أشد

العقاب ، وينزل به الخزي والهوان فى الدنيا ، والنكال السرمدى فى الآخرة .

ثم ذكر أن كل شيء بقضاء الله وقدره فقال :

(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) أى أى شيء قطعتموه من النخل أو أبقيتموه كما كان ولم تعرضوا له بشيء فذلك بأمر الله الذى بلغه إليكم رسوله لتطهر البلاد من شرورهم .

روى أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر بقطع نخلهم وحرقه قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض ، فما بال قطع النخل وتحويلها ، وكان فى أنفس المؤمنين من ذلك شيء ؟ فقالوا للنسائي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله الآية :

(وليعزى الفاسقين) أى فعل ذلك ليعزى المؤمنين ، وليعزى الفاسقين ، ويذمهم ويزيد غيظهم ، ويضعف حسرتهم ، بنفاد حكم أعدائهم فى أعز أموالهم .  
والخلاصة — إنكم بأمر الله قطعتم ، ولم يكن ذلك فساداً بل نعمة من الله ، ليعزى بهم ويذمهم بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله ومخالفة أمره ونهيه .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ  
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً  
بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ  
فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) .

## شرح المفردات

قال المبرد: يقال فاء بقاء إذا رجع ، وأفاءه الله إليه: أى رده وصيره إليه ، والفاء شرعا: ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير ، ويقال وجف الفرس والبعير يجف وجفاً ووجيفاً: إذا أسرع ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ؛ والركاب: ما يركب من الإبل ، وأحدثها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، والعرب لا تطلق لفظ الركاب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، يسلط رسله: أى على أعدائه من غير قتال ولا مصاولة بل بالقاء الرعب فى القلوب ، فيكون الفاء للرسول يصرفه فى مصارفه التى ستعلمها بعد ، من أهل القرى: أى من أهل البلدان التى تفتح هكذا بلا قتال ، ولذى القرى: أى بنى هاشم وبنى المطلب ، قال المبرد: الدولة (بالضم) الشىء الذى يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا أخرى ، والدولة (بالفتح) انتقال حال سارة من قوم إلى قوم ، أى فالأولى اسم لما يتداول من المال ، والثانية اسم لما ينتقل من الحال ، آتاكم: أى أعطاكم ، وما نهاكم عنه: أى ما منعكم عن فعله .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حلّ ببنى النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتحرير نحيبهم وتقطيعها ، ثم إجلأهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع - ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم ، فجعله فينا لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عُدّة فى سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله .

روى أن الصحابة رضى الله عنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم الفى بينهم كما قسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين

الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتتكم أنفسكم في تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والنبيؐ فيما لم تتحملوا في تحصيله تعباً ، وحينئذ يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يرضه حيث يشاء .

## الإيضاح

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ماصيره الله إلى رسوله من أموال بنى النضير فهو لله ورسوله ، ولا يجعل غنيمة للجيش يقسم تقسيم الغنائم ، لأنه لم تقا تل فيه الأعداء بالمبارزة والمصاولة ، بل نزلوا على حكم الرسول فرقاً ورُعْباً ، ولهذا يصرف في وجوه البر والمنافع العامة التي ذكرها الله في هذه الآيات .

أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال : « كانت أموال بنى النضير بما أفاء الله تعالى على رسوله خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عُدَّة فى سبيل الله تعالى » .

(ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) أى ولكن جرت سنة الله أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ويقذف الرعب فى قلوبهم ، فيستسلمون لهم بلا قتال ولا مصاولة ، كما سلط محمداً صلى الله عليه وسلم على هؤلاء فبزلوا على حكمه دون اقتحام مضايق الخطوب ، ولا مقاومة شدائد الحروب ، فلاحق للمقاتلة فى النبيؐ بل يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يصرفه كيف شاء ، ولا يقسمه تقسيم الغنائم .

(والله على كل شىء قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء ، تارة على ما يهد من السنن وأخرى على غير ما يهد منها كما جرى لبنى النضير من استسلامهم بلا قتال على

مناعة حصونهم وكثرة عددهم وعددهم من سلاح وكراع ، وما كان المسامون يظنون أن هذا سيكون .

وبعد أن أتمّ الكلام في إجلاء بنى النضير وفيهم أعقبه بالكلام في حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة فقال :

( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فنّ الله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ) أى ما رده الله إلى رسوله من كفار أهل القرى كقرية النضير وفدك وخيبر ، فيصرف في وجوه البر والخير ولا يقسم تقسيم الغنائم ، بل يعطى للرسول ولذوى قريبه من مؤمنى بنى هاشم وبنى المطلب ، ولليتامى الفقراء ، والمساكين ذوى الحاجة والبؤس ، ولابن السبيل الذى انقطع عنه ماله ، ولا يمكن أن يصل إليه لبعده الشقة وانقطاع طرق المواصلات ، وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة ، لكنها الآن سهلة وهى على أساليب شتى ، فيمكن المرء أن يطلب ما شاء بمحوالة على أى مصرف فى أى بلد على سطح الكرة الأرضية ، ومن ثم فهذا النوع لا يوجد الآن .

ثم علل هذا التقسيم بقوله :

( كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ) أى وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسماً بين هؤلاء المذكورين ، لئلا يأخذ الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم ، ويتكاثروا به ، كما كان ذلك دأبهم فى الجاهلية ، ولا يصيب الفقراء من ذلك شئ .

( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) أى وما أعطاكم الرسول من الفى وغيره فخذوه فهو لكم حلال ، وما نهاكم عنه فابتعدوا عنه ولا تقرّبوه ، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى فى جماعة عن ابن مسعود قال : « لعن الله

تعالى الواشحات<sup>(١)</sup> والمستوشمات والمقنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خللق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن فقالت بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقالت: مالي لألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله عز وجل، فقالت: لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته، قال إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت قوله تعالى: « وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » قالت بلى، قال: فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهي عنه .

وعن أبي رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لَا أَلْمِينَ أَحَدَكُم مَّتَكَنًّا عَلَى أُرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي ، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ » .

ثم حذرهم من مخالفة أوامر الله ونواهيه فقال :

(واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى واتقوا الله فامثلوا أوامره ، واتركوا نواهيه ، فإنه شديد العقاب لمن عصاه ، وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنده زجره ونهاه ، ورسوله ترجمان عما يريد الله لخير عباده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(١) الوشم : غرز الإبرة فى عضو من الجسم ثم حشوه بالكحل ، والمستوشمة : التى تطالب

فعل ذلك ، والمستنمصة : هى التى تتلف الشعر من الوجه وغيره ، والمفلجة : هى التى تتكلف

تفريغ ما بين الشيا بطرق صناعية .

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)  
 وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ  
 سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ  
 رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .

### شرح المفردات

التبوءاً : النزول في المكان ، ومنه المباءة للمنزل ، والمراد من الدار المدينة ، والمراد  
 بالحاجة الحسد والغيظ ، وأوتوا : أى أعطى المهاجرون دون الأنصار ، ويؤثرون :  
 أى يقدمون ويفضلون ، والخصاصة : الحاجة من خصاص البيت ؛ وهو ما يبقى بين  
 عيادته من الفرج وكذا كل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع ، والشح :  
 اللؤم ؛ وهو أن تكون النفس كزرة حريصة على المنع ، قال شاعرهم :  
 يمارس نفساً بين جنبيه كزرة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلاً  
 قال الراغب : البخل : المنع ، والشح : الحال النفسية التي تقتضى ذلك ، وغلاً  
 أى حسداً وبغضاً .

### المعنى الجملى

بعد أن بين مصارف النفي فيما سلف ، وذكر أنه لله وللرسول ولدى القربى  
 واليتامى والمساكين - ذكر هنا أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات  
 السامية ، والمناب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة وبالغ في مدحهم فذكر  
 لهم هذه الفضائل :

(١) إنهم يحبون للمهاجرين .

(٢) إنهم ليس في قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ما هم في أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح الردي والبخل المهلك ، الذي يدسى النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر .

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يمجئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل في قلوبهم حقدا وحسدا لهم .

### الإيضاح

( للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ) أى إنه أراد بهؤلاء الأربعة السالفين فقراء المهاجرين الذين اضطروهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلبا لمرضاة ربهم ونيلًا لثوابه ونصرة لله ورسوله ، وإعلاء لشأن دينه .

( أولئك هم الصادقون ) أى هؤلاء هم الصادقون في إيمانهم ، إذ قد فعلوا ما يدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم ، فهم قد أخرجوا من ديارهم ، وهى العزيزة على النفوس ، المحببة إلى القلوب .

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام  
وتركوا الأموال والمال شقيق الروح ، وكثيرا ما يُقتل المرء في سبيل التود  
عنه ، وانتزاعه من أيدي غاصبيه ، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين ، ورفعته  
شأنه ، وذبوع ذكره ، فحق لهم من ربهم النعيم المقيم ، وجزيل الثواب بما لا عين  
رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل  
الأعمال ، وعظيم الخلال .

روى أن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة في الشتاء ماله دثارا غيرها . وعن سعيد قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشر وا صعا ليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » أخرجه أبو داود .  
ثم مدح سبحانه الأنصار وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم عن الفداء إذ جعل للمهاجرين دونهم فقال :

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) أى والذين سكنوا المدينة ، وأشر بت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين ، لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع ، فهم :

(١) يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم ، وقد آخى رسول الله بينهم وبينهم ، وأسكن المهاجرين في دور الأنصار معهم ، ونزل بعض الأنصار عن بعض نسائهم للمهاجرين ، طيبة بذلك نفوسهم ، قريرة به أعينهم .  
روى أحمد عن أنس قال : « قال المهاجرون : يارسول الله مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم حسن مواساة في قليل ، ولا حسن بذل في كثير ، لقد كفونا الثونة ، وأشركونا في الميأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال لا ، ما أنتميم عليهم ودعوتم الله لهم » .

وقال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصى بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محبتهم ، وأن يعفو عن مسيئتهم .

(٢) لا يطمحون إلى شئ مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفئ وغيره .  
روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم ، فقالوا أموالنا بيننا قطاعع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أغير ذلك ؟ قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ فقال : هم قوم لا يعرفون العمل فبكتفونهم وتقاسمونهم التمر ، فقالوا نعم يارسول الله » .

(٣) يقدمون ذوى الحاجة على أنفسهم ، ويبدمون بسواهم قبلهم ، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداها ويزوجها واحداً من المهاجرين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقال أبو طلحة أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله ؛ فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت والله ما عندى إلا قوت الصبية ، قال إذا أراد الصبية العشاء فتوّميهن ، وتعالى فأطعمى السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما ( وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ) » .

ثم بين سوء عاقبة الشح فقال :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يفظوا أنفسهم من الحرص على المال والبخل به فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

أخرج الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس مرفوعاً « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نار جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الإيمان والشح فى قلب عبد أبداً » .

وأخرج أحمد والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

وروى الأمامى عن ابن مسعود أن رجلاً أتاه فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول ( وَمَنْ يُوقْ شِحِّ نَفْسِهِ ) وأنا رجل

شحيح لا أكاد أخرج من يدي شيئاً؛ فقال ابن مسعود: ليس ذلك الذى ذكر الله تعالى، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشئ البخل — ففرق بين الشح والبخل.

وليس المراد من تقوى الشح الجود بكل ما يملك؛ فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى فى النأبة».

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) أى والتابعون للفر يقين بالإحسان إلى يوم القيامة يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا فى الدين الذين سبقونا بالإيمان.

قال ابن أبى ليلى: الناس على ثلاث منازل: المهاجرين، والذين تبوءوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل.

وفى هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، لأنه جعل لمن بعدهم حظاً فى النى ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، ومن أبغضهم أو أبغض واحداً منهم أو اعتقد فيهم شراً فلاحق له فى النى.

وإنما بدعوا فى الدعاء بأنفسهم بقوله صلى الله عليه وسلم: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول».

(ولا تجعل فى قلبنا غلاً للذين آمنوا) أى ويدعون الله ألا يجعل فى قلوبهم حسداً. وحقداً للمؤمنين جميعاً.

والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة، وينبوع كل معصية، فهما يوجبان سفك الدماء والبنى والظلم والسرقه، وسائر أنواع الفجور.

ومحو الآية قوله فى سورة براءة «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

وفي الآية إيماء إلى وجوب محبة مَنْ تقدمهم من المؤمنين ومراعاة حقوقهم لإخوتهم في الدين والسبق بالإيمان .

(ربنا إنك رؤوف رحيم) أي ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك ، كثير الرحمة لهم ، فأجب دعاءنا .

وفي الآية حثٌّ على الدعاء للصحابة ، وصفاء القلوب من بغض أحد منهم .

وعن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرا عليه : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » ثم قال : هؤلاء المهاجرون ، أفنهم أنت ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآية ، ثم قال هؤلاء الأنصار فأت منهم ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ » الآية ، ثم قال : أفن هؤلاء أنت ؟ قال أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سب هؤلاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا بِقَوْلِهِمْ لَأَخْوَانُهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ لَنْ أَخْرِجَكُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ،  
وَإِنْ قُوَّتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَنْ أَخْرِجُوا  
لَا يَخْرِجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَنْ قُوَّتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَنْ نَنْصُرَهُمْ لِيَوَلَّوْا  
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ،  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يَتَّقُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرْبَى مُحَصَّنَةٍ  
أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ،  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا  
وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ

اَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)  
فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) .

## شرح المفردات

نافقوا : أى أظهروا غير ما أضمرنا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان :  
الأصدقاء واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أى لنعاوننكم ،  
ليولن الأديار : أى ليفرطن هار بين ، أشدرهبة فى صدورهم من الله : أى إنهم يخافونكم  
فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لايفقهون : أى لايعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه  
حق خشيته ، جميعاً : أى مجتمعين ، محصنة : أى بالدروب والخنادق وغيرها ، جُدُرُ :  
أى حيطان واحدها جناز ، بأهمهم : أى حربهم ، وشقى : أى متفرقة ، واحدها  
شتيت ، وبال أمرهم : أى سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلاً وبيل : أى وخيم  
سبي العاقبة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما  
قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفداء التى تقدمت — أردفه بذكر  
ماحصل من مناقحة المنافقين عبد الله بن أبى بن سائل ورفقته لأولئك اليهود ،  
وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما  
قصه الله علينا وفضله أتمّ تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ؛ وإنا نشاهد كل يوم  
أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويفترونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون  
لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من

بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبي سلول ، ووديعه بن مالك ، وسويد وداعس  
بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا في كتابه .

## الإيضاح

( ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لأن  
أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ) . تقدم أن قلنا في غير موضع إن  
مثل هذا الأسلوب ( ألم تر ) يراد به التعجيب من حال الحدث عنه ، وأن أمره غاية  
في الغرابة ، وموضع الدهشة والحيرة .

فهؤلاء قوم من منافق المدينة لهم أقوال تخالف ما يبطنون ، منهم عبد الله بن أبي  
وشيعته رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شرع يحاصر بنى النضير ويقاتلهم ،  
فأرسلوا إليهم يقولون لهم : إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا ، ولا نسلمكم لمحمد  
أبداً ؛ فجدوا في قتالهم ، ولا تنهوا في الدفاع عن دياركم وأموالكم ، حتى إذا اشتد  
الحصار ، وأوغل المسلمون في الدخول في ديارهم ، وتحريق نخيلهم ، وهدم بيوتهم  
رأى بنو النضير أن تلك الوعود كسر اب ببيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم  
يجده شيئاً ، وأنهم بين أمرين :

(١) الاستسلام وقبول حكم محمد عليهم .

(٢) إفناؤهم وتخريب ديارهم .

وقد أدخل الله الرعب في قلوبهم ، فاختاروا الدنية ، وقبلوا الجلاء عن الديار  
واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لاعدود لهم ولا وعود ، كما هو دأبهم في كل  
زمان ومكان .

وبعد أن كذبهم على سبيل الإجمال كذبهم تفصيلاً ليزيد تعجيب الخاطب  
من حالهم ، وإييين له مبلغ خبث طويبتهم ، وشدة جبنهم ، وفرعهم من القتال ،  
وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لا كتبها ألسنتهم وقلوبهم منها براء فقال :

(لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنَّ الأديار ثم لا ينصرون ) أى لئن أخرجَ بنو النضير من ديارهم فأجّلوا عنها لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج من ديارهم ، ولئن قاتلهم محمد صلى الله عليه وسلم لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولنَّ الأديار منهزمين عن محمد وأصحابه ، هاربين منهم خاذلين لهم ، ثم لا ينصر الله بنى النضير .

وهذا إخبار بالغيب ، ودليل من دلائل النبوة ، ووجه من وجوه الإعجاز ، فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه .

والخلاصة — إن بنى النضير أخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا فما نصروهم ، ولو كانوا قد نصروهم لتركوا النصره وانهمزموا وتركوا أولئك اليهود فى أيدي الأعداء .

ثم ذكر السبب فى عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين فى قتال فقال :  
(لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله) أى إنهم يخافونكم أشد مما يخافون الله ، ومن ثم لم يجزءوا على الدخول معكم فى قتال ، وأسلموا اليهود يحكم عليهم الرسول بما يشاء .

ثم ذكر سبب الرهبة لهم من دون الله فقال :

(ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) أى وكانت هذه الرهبة لكم فى صدورهم أشد من رهبتهم لله من أجل أنهم لا يفقهون قدر عظمتة تعالى ، فهم لذلك يستخفون بما صابه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم .

ونحو الآية قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » .

ثم أكد جهن اليهود والمنافقين وشديد خوفهم منهم فقال :  
(لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جُدُر) أى إن هؤلاء اليهود

والمناقضين قد ألقى الرعب في قلوبهم، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين، لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ، بل يقاتلونكم في قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصرون .

ثم بين أن من أسباب هذا الجبن والخوف - التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب فقال :

(بأسهم بينهم شديد) أى بعضهم عدو لبعض، فلا يمكن أن يقاتلوا عدوا لهم وهم في تخاذل وانحلال، ومن ثم استكانوا وذلوا .

وفي هذا عبرة للمسلمين في كل زمان ومكان، فإن الدول الإسلامية ما هددت كيانتها، وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلت أفرادا وجماعات، وانفراط عقد وحدتها، ومن ثم طمع الأعداء في بلادهم ودخلوها فاتحين وأذاقوا أهلها كؤوس الذل والهوان وفرقهم شذر مذر، وجعلهم عبيدا أذلاء في بلادهم واتهموا ثرواتهم، ولم يبقوا لهم إلا النفاية وقنات الموائد. والله الأمر من قبل ومن بعد، وعسى الله أن يأتي بالفتح أو نصر من عنده، فيستيقظ المسلمون من سباتهم، ويشوبوا إلى رشدهم، فيستعيدوا سابق مجدهم، وتدول الدولة لهم :

فيوما لنا ويوما علينا ويوما نساء ويوما نسر

ثم زاد ما سلف تؤكد فقال :

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أى إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين خلتهم متفقين وهم مختلفون غاية الاختلاف، لما بينهم من إحن وعداوات، فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة .

وفي هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم، وحث للعزائم الصادقة على حربهم، فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه ازداد نشاطا وازدادت حميته وكان ذلك من أسباب نصرته عليه .

ثم بين أسباب النفرة والتحلال الوحدة فقال :  
 ( ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ) أى ذلك التفريق من جرّاء أن أفئدتهم هواء ،  
 فهم قوم لا يفقهون سر نظم هذه الحياة ، ولا يعلمون أن الوحدة هى سر النجاح ،  
 ومن ثم تخاذلوا وتفرقت كلمتهم ، واختلف جمعهم ، واستهان بهم عدوهم ، ودارت  
 عليهم الدائرة .

ثم أرشد إلى أن هؤلاء ليسوا بيدع فى الكافرين ، بل قد سبقهم غيرهم من  
 كان حقه أن يكون عبرة لهم فقال :

( كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ) أى مثل بنى النضير مثل  
 اليهود من بنى قينقاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم  
 يوم السبت فى شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وأجلهم إلى أذرع  
 بالشام ، وذاقوا سوء عاقبة كفرهم إثر عصيانهم قبل وقعة بنى النضير التى كانت  
 سنة أربع للهجرة .

والخلاصة — إنهم قد كانت لهم أسوة بنى قينقاع ، فجزعهم لا تزال دامية ،  
 وآثار خذلانهم لا تزال باقية للعيان ، وقد كان من حق ذلك أن يكون عبرة ماثلة  
 لهم ولكمهم قوم لا يفقهون ولا يعتبرون بالمثلات التى يرونها رأى العين .

( ولهم عذاب أليم ) لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه سوى علام الغيوب .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر أشد نكالا وأوجع إيلا ما فقال :

( كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني

أخاف الله رب العالمين ) أى مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بنى النضير  
 النصر إن قوتلوا ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، ومثل بنى النضير فى غرورهم  
 بوعودهم وإسلامهم إياهم فى أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم — كمثل الشيطان  
 الذى غرّ إنسانا ووعدته النصر عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه ،  
 فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه وقال : إني أخاف الله رب العالمين إذا أنا  
 نصرتك ، لثلا يشركنى معك فى العذاب .

والخلاصة — إن مثل اليهود في اغترارهم بمن وعدوهم النصر من المنافقين بقولهم لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولما جدَّ الجدَّ واشتدَّ الحصار والقتال تخلَّوْا عنهم وأسلموهم للهلكة — كمثل الشيطان إذ سَوَّلَ للإنسان الكفر والعصيان ، فلما دخل فيه تبرأ منه وتنصل وقال : « إني أخاف الله رب العالمين » .

ولا تجد مثلاً أشد وقعا على النفوس ، ولا أنكى جرحاً في القلوب من هذا المثل ، لمن اعتبر وادَّكر ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

ثم ذكر عاقبة الناصح والمنصوح فقال :

( فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين ) أى فكان عاقبة الأمر بالكفر والداخل فيه — الخلود في النار أبداً ، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر كيهود بنى النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
 إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ  
 أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ  
 الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) .

### شرح المفردات

ما قدمت : أى أى شئٍ قدمت ، وغد : هو يوم القيامة ؛ سمي بذلك لقربه ، فكل آت قريب كما قال : وإن غداً لناظره قريب . نسوا الله : أى نسوا حقه فتركوا أوامره ، ولم ينتهوا عن نواهيه ، فأنساهم أنفسهم : أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيراً ينفعها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، وبيّن أن ما يقولون غير ما يبطنون ، وأن مثلهم كمثل الشيطان فى الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النضير وكيف خُدِعوا بتلك الوعود الخلابّة التى كانت عليهم وبالآونكالا ، وكان فيها سوء حالهم فى دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا فى دنياهم ما ينفعهم فى آخرهم حتى ينالوا الثواب العظيم ، والنعم المقيم ، وألا ينسوا حقوق الله ، فيجعل الرين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

## الإيضاح

( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ) فافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر .  
 ( ولتنظر نفس ما قدمت لغد ) أى ولتنتظروا ماذا قدمتم لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم من توقع العذاب حيارى .  
 ( واتقوا الله ) تكرر للتوكيد ، لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التى هى الزاد فى المعاد .

ثم وعد وأوعد وبشر وأنذر فقال :

( إن الله خبير بما تعملون ) أى إنه تعالى عليم بأحوالكم لا يخفى عليه شئ من شؤونكم ، فراقبوه فى جليل أعمالكم وحقيرها ، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقيير والعظيم ، والقليل والكثير ، ولا يفوته شئ من ذلك .

ثم ضرب لهم الأمثال تحذيرا وإنذارا فقال :

( ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ) أى ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها على عباده ، فران على قلوبهم وأنساهم العمل

الصالح الذى ينجيهم من عقابه ، فضلوا ضللا بعيدا ، فجازاهم بما هم له أهل ، وما هم مستحقون ، جزاء وفاقا لما دسوا به أنفسهم وأوقعوها فى المعاصى والآثام ، ومن ثم حكم عليهم بالهلاك فقال :

( أولئك هم الفاسقون ) أى أولئك هم الذين خرجوا من طاعة الله فاستحقوا عقابه يوم القيامة .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

خطب أبو بكر فقال : أما تعلمون أنكم تعدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل ، إن قوما جعلوا آجالهم غيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم فقال : « وَلَا تَسْكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تنفى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه . إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فى من يغلب جهله حلمه ، ولا خير فى من يخاف فى الله لومة لائم .

ثم وازن بين من يعمل الحسنات ، ومن يجترم السيئات فقال :

( لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ) أى لا يستوى الذين نسوا الله فاستحقوا

الخلود فى النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ » .

ثم بين عدم استوائهما فقال :

( أصحاب الجنة هم الفائزون ) أى أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكيرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباعهم للشهوات الفانية ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابها ، وأن الفوز لأصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نُبِّهوا له ، كما تقول لمن عقَّ أباه : هو أبوك - تجعله كأنه لا يعرف ذلك فتنبيهه إلى حق الأبوة الذى يقتضى البر والمطف .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْتَمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) .

## شرح المفردات

خاشعا : أى مقادا متذلا ، متصدعا : أى متشفقا ، خشية الله : أى خوفه  
وشديد عقابه ، الغيب : ما غاب عن الحسّ من العوالم التي لانراها ، والشهادة :  
ما حضر من الأجرام المادية التي نشاهدها ، القدوس : أى المنزه عن النقص ،  
السلام : أى الذى سلم الخلق من ظلمه إذ جعلهم على نُظُمٍ كفيّلة برفيهم ، المؤمن :  
أى واهب الأمن ، فكل مخلوق يعيش فى أمن ؛ فالطائر فى جوّه ، والحية فى وكرها ،  
والسمك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس  
يحرسون قراهم وإلا هلكوا ، العزيز : أى الغالب على أمره ، الجبار : أى الذى  
جبر خلقه على ما أراد وقسرم عليه ، المتكبر : أى البليغ الكبرياء والعظمة ،  
سبحان الله عما يشركون : أى تنزه ربنا عما يصفه به المشركون ، الخالق : أى  
المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ، والبارئ : أى المبرز لها على صفحة الوجود  
بحسب السنن التي وضعها والقرض الذى خلقت له ، المصور : أى الموجد للأشياء  
على صورها ومختلف أشكالها كما أراد ، الأسماء الحسنى . أى الأسماء الدالة على محاسن  
المعاني التي تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على  
كمال صفاته ، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق المضلّين من المناقّين والضالّين من اليهود وغيرهم وأمر عبادة  
المؤمنين بالتقوى ، استعدادا ليوم القيامة - ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما  
هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب ، وتتصدع لدى سماع عظاته  
الأفئدة ، لما فيه من وعد ووعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام ، فلو أننا ألهمنا الجبل  
عقلا وفقهه وتدبر ما فيه لخشع وتتصدع من خوف الله عز وجل ، فسكيف بكم

أيها البشر لاتلين قلوبكم ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره ،  
وتدبرتم كتابه .

وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذى الأسماء  
الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

## الإيضاح

( لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنه خاشعا متصدعا من خشية الله ) أى  
لو جعل فى الجبل عقل كما جعل فيكم أيها البشر ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع  
وتشقق من خشية الله .

وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، وفيه  
توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع  
التي تذلل لها الجبال الراسيات .

( وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ) أى وهذه الأمثال التي  
أودعناها القرآن وذكرناها فى مواضعها التي ضربت لأجلها ، واقتضاها الحال من  
نحو قوله : « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَسْقَى  
فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » وقوله : « ثُمَّ قَسَتْ  
قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » وقوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا  
سَيَّرَتْ بِهِ الْجِبَالَ أَوْ قَطَعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَتْ بِهِ الْمَوْتَى » الآية — جعلناها  
تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؛ فمن الناس من وفقه الله  
واهتدى بها إلى سواء السبيل ، وفاز بما يرضى ربه عنه ، ومنهم من أعرض عنها  
ونأى ، فأخذته الله نكال الآخرة والأولى ، وأدخله فى سقر ، وما أدراك ما سقر ،  
لأنبى ولا تندر .

ثم وصف سبحانه نفسه بجليل الصفات ، التي هي سر العظمة والجلال ، الخالق الأرض والسماوات فقال :

( هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ) أى إنه لأربّ غيره ، ولا إله فى الوجود سواه ، فكل ما يعبد من دونه من شجر أو حجر أو صنم أو ملك فهو باطل ، وهو يعلم جميع الكائنات الشاهدة لنا والغائبة عنا ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماوات ، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو الرحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

( هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون ) أى هو الله المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ، المنزه عن كل عيب ونقص ، الذى أمن خلقه أن يظلمهم ، وهو الرقيب عليهم كما قال « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » وقال : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » والذى عز كل شئ فقهره ، وغلب الأشياء بعظمته وجبروته ، فلا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما ورد فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة » تنزه ربنا عما يقوله المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

( هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ) أى هو الله الخالق لجميع الأشياء المبرز لها إلى عالم الوجود على الصفة التى أرادها كما قال : « فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّأَشَاءُ رَكَّبَكَ » ، وله الصفات الحسنى التى وصف بها نفسه لا يشركه فيها أحد سواه .

( يسمح له ما فى السماوات والأرض ) تقدم الكلام فى هذا فى مثل قوله : « تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

( وهو العزيز الحكيم ) أى وهو الشديد الانتقام من أعدائه ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرّفهم فيما فيه صلاحهم ، فهو كامل القدرة كامل العلم .  
اللهم وفقنا للهدى والرشاد فى يوم المعاد .

### خلاصة ما حوته السورة الكريمة من المقاصد والأغراض

- (١) تنزيه الله لنفسه عن كل نقص .
- (٢) ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه .
- (٣) تقسيم النفى الذى أخذ من بنى النضير مع ذكر المصارف التى يوضع فيها .
- (٤) أخلاق المنافقين المضلين ، وأخلاق أهل الكتاب الضالين مع ضرب المثل لهم .
- (٥) ذكر نصح المؤمنين .
- (٦) إعظام شأن القرآن وإجلال قدره .
- (٧) وصف الله سبحانه نفسه بأوصاف الجلال والكمال .

## سورة الممتحنة

هي مدنية ، وآيها ثلاث عشرة ، نزلت بعد الأحزاب .  
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه ذكر هناك موالاته الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ،  
وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشبهوا المنافقين .  
(٢) إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين  
من المشركين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ  
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ  
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَتُومِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي  
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ  
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا  
لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالشُّوْءِ وَوَدُّوا  
لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) .

## شرح المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم  
وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل

إيمانكم بالله ، ضل : أى أخطأ ، وسواء السبيل : أى الطريق المستوى وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الخدق فى إدراك الشيء وفعله . ومنه رجل ثقِف ثقِف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

### المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم وغيرهما «أن سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يندفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلتعة (مولى عبد الله بن حميد بن عبد العزى) فأعطاها عشرة دنانير وكتب معها كتابا إلى أهل مكة : هذا صورته :

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم خذوا جذركم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع) فإن بها ظمينة (امرأة) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها واخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجهدت وحلفت ، فهيموا بالرجوع ، فقال على : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه وقال لها : أخرجى الكتاب ، أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فأحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأمواهم ، فأحببت إذ فاتنى النسب فيهم

أن أصطع إليهم يداي يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فنزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ » الآية .

### الإيضاح

(يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء) أى لاتجعلوا الكفار أنصارا وأعوانا لكم .  
ثم فسر هذه الموالاة فقال :

(تلقون إليهم بالمودة) أى تبالغونهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم التى لاينبغى لأعدائه أن يطلعوا عليها من خطط حربية ، أو أعمال نافعة فى نشر دينه وبث دعوته بسبب ما بينكم وبينهم من مودة .  
ثم ذكر أن مما يمنع هذا الاتحاد أمرين :

(١) (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) أى وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذى أنزله عليكم ، فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصارا وتسرون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم ، ويعوق نشر دينكم .

(٢) (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) أى يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولا جرم سوى ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وقوله : « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » .

وفي هذا تهيبج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم ، ثم زادهم تهيبجا بقوله :

( إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ) أى إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ، باغين مرضاتي عنكم ، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقا عليكم وسخطا لدينكم .

ثم توعد من يفعل ذلك وشدّد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجر له فقال :  
( ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ) أى ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه فقد جار عن قصد الطريق التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى .

ثم ذكر أموراً أخرى تمنع موالاتهم فقال :

( ١ ) ( إن يشقوكم بكونوا لكم أعداء ) أى إن يظفر بكم هؤلاء الذين تسمرون إليهم بالمودة بكونوا حربا عليكم ويفعلوا بكم الأفاعيل .

( ٢ ) ( ويسطوا إليكم أيديهم وأستهم بالسوء ) أى ويمدوا أيديهم وأستهم لقتالكم وأذاكم وسبكم وشتمكم ، فكيف ترونهم على هذه الحال وتتخذونهم أصدقاء وأولياء .

( ٣ ) ( وودّوا لوتكفرون ) أى وتمنوا لوتكفرون بربكم ، لتكونوا على مثل الذى هم عليه ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة .

والخلاصة — إن هؤلاء يودون لكم كل ضر وأذى في دينكم ودنياكم ، فكيف بكم بعد هذا تمدون إليهم حبال المودة ، وتوثقون عرا الإخاء ، فهذا مما لا يرشد إليه عقل ، ولا يهدى إليه دين .

ثم ذكر أن ماجلوه سببا من المحافظة على الأهل والولد لا ينبغي أن يقدم على شئون الدين فقال :

( إن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ) أى إن تنفعكم يوم القيامة أقاربكم

ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم ، وتقرَّبون إليهم محاماة عنهم — فتدفع عنكم عذاب الله إن عصيتموه في الدنيا وكفرتم به .

ثم بين السبب في عدم نفعهم فقال :

( يفصل بينكم ) أى يفرِّق الله بينكم وبينهم بما يكون من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر كما قال : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، إَكُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أوعد من يفعل ذلك فقال :

( والله بما تعملون بصير ) أى والله بأعمالكم ذو بصيرة بها ، لا يخفى عليه شيء منها ، فهو محيط بها جميعها ، ومجازيكم عليها ، إن خيرا نخير ، وإن شرا فشر ، فاتقوا الله في أنفسكم واحذروه .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رُ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْحَمِيدُ (٦) .

## شرح المفردات

الأسوة: ( بضم الهمزة وكسرهما وبهما قرئ ) من يؤتى به ، كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسي ، برآء واحدم برىء كظرفاء وظريف : أى متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما تعبدون : أى الأصنام والسكواكب وغيرها ، البغضاء : أى البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لأنحتمله ، من قولهم : فتن الفضة : أى أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى محيئه ، ومن يتول : أى ومن يعص النصيحة .

## المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين ، وذكر لهم الموانع التي تمنع من ذلك كأخراجهم من الديار ، وتمنى الكفر لهم ، وصددهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به ، وأنهم متى وجدوا سبيلا لأذاهم يقول أوفسرك سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى — أ كد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا برآء منكم ، قال الفراء : يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ؟ لتعلم أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرا الإيمان .

## الإيضاح

( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله ) أى قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين حين قالوا لقومهم الذين

كفروا بالله وعبدوا الطاغوت : أيها القوم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد .

ثم فسر هذه البراءة بقوله :

( كفرنا بكم ) أي جحدنا ما أتم عليه من الكفر ، وأنكرنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله ، فلا نعتد بكم ولا بآلهتكم ، فإن ما أتم عليه لا تقره العقول الراجحة ، ولا الأحلام الحصيفة ؛ فما قيمة الأحجار والأصنام التي تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضرر « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

( وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ) أي وهانحن أولاء قد أعلننا الحرب عليكم ، فلا هوادة بيننا وبينكم ، وسيكون هذا دائماً معكم ، لانترككم مجال حتى تتركوا ما أتم عليه من الشرك ، فتقلب العداوة ولاية ، والبغضاء محبة .

( إلاقول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ) أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ ؛ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » .

والخلاصة — لانجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة وتستغفروا لهم ، كما فعل إبراهيم لأبيه ، لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما مات على الكفر تبين

له ذلك ، فترك الاستغفار ، وأنتم قد استبانتم لكم عداوتهم بكفرهم بالرسول ، وإخراجكم من الديار ، فلا ينبغي أن تستغفروا لهم .

(وما أملك لك من الله من شئ) أى وليس فى وسعى إلا الاستغفار لك ، ولا أستطيع أن أنفك بأكثر من هذا ، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك فلا أدفعها عنك .

ثم أخبر عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبوءوا منهم ولجئوا إلى الله وتضرعوا إليه :

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أى ربنا اعتمدنا عليك فى قضاء أمورنا ، ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى ، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا ، وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب .

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لخلقهم عليه .

(واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم) أى واستر لنا ذنوبنا بعفوك عنها ، إنك أنت الذى لا يضام من لاذ بجنايته ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفه إليهم فيما فيه صلاحهم .

ثم أعاد ما تقدم مبالغة فى الحث على الانسء بإبراهيم عليه السلام ومن معه .  
(لقد كان نسكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم ومن آمن معه من أتباعه المؤمنين ، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وجزيل ثوابه ، والنجاة فى اليوم الآخر .

وفى هذا تهيبج إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعضّ عليهما بالنواجذ ، وبيان أنهما ملاك الأمر كله يوم العرض والحساب .

ثم أوعد على تركهما بقوله :

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن أعرض عما ندبه الله إليه منكم

وأدبر واستكبر، ووالى أعداء الله وأتى إليهم بالموودة فلا يضرن إلا نفسه ، فإن الله غنى عن إيمانه وطاعته ، بل عن جميع خلقه ، محمود بأيديه وآلائه عليهم .  
 ونحو الآية قوله تعالى : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ،  
 وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ  
 فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ  
 يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ  
 وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ، وَمَنْ  
 تَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) .

### شرح المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبرؤهم : أى تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى العادلين ، وظاهروا : أى ساعدوا ، أن تولوهم : أى أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم .

### المعنى الجملى

لما نهاهم عن موالاته الكفار وإلقاء الموودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه — حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، والتشدد في معادلتهم

ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه —  
أردف ذلك سبحانه بأنه سيفير من طبايع المشركين ، ويغرس في قلوبهم محبة الإسلام ،  
فتمّ التوادّ والتصافى بينكم وبينهم .

وفي ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطيب لقلوبهم ، وقد أنجز الله  
وعده ، فأتاح للمسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من  
التحابّ والتوادّ ، ثم رخص لهم في صلة الذين لم يقاتلوه من الكفار ولم يخرجهم  
من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم .

روى أحمد في جماعة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيبة بنت  
عبد العزّي على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا — صناب ( صباغ يتخذ من الخردل  
والزبيب ) وأقيطٍ وسمن وهي مشركة ؛ فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها ،  
حتى أرسلت إلى عائشة رضى الله عنها أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن  
هذا فسألت فأنزّل الله « لا يَنْبَأُكُمْ اللهُ » الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها  
بيتها ؛ وقال الحسن وأبو صالح : نزلت الآية في خزاعة وبنى الحارث بن كعب وكنانة  
ومزينة وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا  
يقاتلوه ولا يمينوا عليه .

## الإيضاح

( عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة ، والله قدير والله غفور  
رحيم ) أى لعل الله يجعل بينكم وبين أعدائكم من كفار مكة محبة بعد البغض ،  
ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد العرة ، والله قدير على ما يشاء ، فيؤلف بين القلوب  
بعد العداوة ، غفور لخطيئة من أتى إليهم بالمودة إذا تابوا منها ، رحيم بهم أن يعذبهم  
بعد التوبة .

وقد تمّ ذلك بفتح مكة حين دخل المشركون في دين الله أفواجا ، وتمّ بينهم التصافى والتصاهر ، وكان بينهم أتم ما يكون من وثيق الصلات كما قال تعالى :  
 « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ  
 بِنِعْمَةِ إِخْوَانِكُمْ عَلَىٰ شَقَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ) وقال : (هُوَ  
 الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا  
 مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) .

ثم أباح لهم صلة الذين لم يقاتلهم من الكفار فقال :

( لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم  
 وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ) أى لاينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفار  
 الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ولم يعاونوا على إخراجكم ، وهم  
 خزاعة وغيرهم من كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والإخراج  
 من الديار ، فأمر الله رسوله بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم .

ثم زاد الأمر إيضاحاً وبيانا فقال :

( إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على  
 إخراجكم أن تولوهم ) أى إنما ينهاكم عن موالاته الذين ناصبوكم العداوة فقاتلوكم  
 وأخرجوكم أو عاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سعوا في إخراج  
 المؤمنين ، وبعضهم أعان المخرجين .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

( ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ) لأنهم تولوا غير الذين يجوز لهم أن يتولهم ،  
 ووضعوا ولايتهم في غير موضعها ، وخالفوا أمر الله في ذلك .

بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ،  
 اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،  
 لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ  
 عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُتْمَسَكُوا  
 بِعِصْمِ الْكُوفَرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكَ  
 حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ  
 شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبَّيْمُ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ  
 مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ (١١)

### شرح المفردات

فامتحنوهن : أى فاختروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن  
 فى الإيمان ، علمتموهن : أى ظننتموهن ، إلى الكفار ، أى إلى أزواجهن الكفار  
 أجورهن : أى مهورهن ، وعصم : واحدها عصمة ، وهى ما يعتصم به من عقد وسبب ،  
 والكوافر : واحدهن كافرة : فمقبم : أى فكانت المقبي لكم ، أى الغلبة  
 والنصر لكم ، حتى غنتم منهم .

### المعنى الجملى

الكافر المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة :

(١) أن يستمر على عناده ، وإلى مثله أشار بقوله : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ » الآية .

- (٢) أن يرجى منه أن يترك العناد ، وإلى مثله أشار بقوله : « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً » .
- (٣) أن يترك العناد ويستسلم ، وإلى ذلك أشار بقوله : « إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ » الآية .

## الإيضاح

(بأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) أي إذا جاءكم أيها المؤمنون النساء اللاتي نطقن بالشهادة ولم يظهر منهن ما يخالف ذلك — مهاجرات من بين الكفار فاختبروا حالهن ، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن ، أو هن منافقات ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للمتحنة : بالله الذي لا إله إلا هو ، ماخرجت من بغض زوج ، بالله ماخرجت رغبة بأرض عن أرض ، بالله ماخرجت التماساً لدنيا ، بالله ماخرجت إلا حباً لله ورسوله .

ثم ذكر جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ليتبين أن الامتحان يفيد معرفة الظاهر فحسب فقال :

(الله أعلم بما يخفين) منكم وهو يتولى السرائر ، وفي هذا بيان أنه لا سبيل إلى ما تطمئن إليه النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهم ، فإن ذلك مما استأثر الله بعمله .  
(فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار) أي فإن غلب على ظنكم إيمانهم بالخلف وغيره مما يورث اطمئنان قلوبكم على إسلامهن ، فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين .

ثم بين العلة في النهي عن إرجاعهن بقوله :

(لاهن حلّ لهم ولا هم يحلون لهن) أي لا المؤمنات حلّ للكفار ، ولا الكفار يحلون للمؤمنات .

(وآتوهن ما أنفقوا) أي وأعطوا أزواجهن مثل ما أنفقوا من المهور .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أمر عليًا أن يكتب بالصلح فكتب : باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلمحوا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض . على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده إليه ، ومن جاء قريشا من محمد لم يرده إليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأن لا إسلال ولا إغلال ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا جندل بن سهيل ، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من الرجال إلا رده في مدة العهد وإن كان مسلما ، ثم جاءت المؤمنات مهاجرات ، وكانت أولاهن أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط ، فقدم أخوها عمار والوليد فكلما في أمرها ليردها إلى قريش فنزلت الآية ، فلم يردها عليه الصلاة والسلام ، ثم أنكحها زيد بن حارثة .

وعن مقاتل أنه جاءت امرأة تسمى سبئية بنت الحرث الأسلمية مؤمنة ، وكانت تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة فطلب ردها فأنزل سبحانه الآية فلم يردها وأعطاه ما أنفق ، وتزوجها عمر رضى الله عنه .

ومن هذا تعلم أن الآية بينت أن العهد الذى أعطى كان فى الرجال دون النساء ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات .

( ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن من أجورهن ) أى ولا إثم عليكم ولا حرج فى نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات ، بشرط أن تتعهدوا بالمهور ، وتلتزموا بأدائها .

وإنما جاز هذا لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ، فكان من المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أسر أزواجهن .

( ولا تمسكوا بعصم الكوافر ) أى إنه لا ينبغى أن يكون علاقة من علاقات .

الزوجية بين المؤمنين ونسأهم الشركات الباقيات في دار الشرك ، فلا يمنع نكاح إحداهن نكاح خامسة أو نكاح أختها ما دامت في العدة ، لأنه لا عدة لهن .

(واسألوا ما أنفقتم) أى واسألوا الكفار مهور نسايتكم اللاحقات بهم إذا ارتددن ولحقن بهم .

(وليسألوا ما أنفقوا) أى وليسألكم الكفار مهور نسايتكم المهاجرات إليكم ، والمراد أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك .

(ذلكم حكم الله بحكم بينكم) أى ذلكم الذى ذكر هو حكم الله فاتبعوه ، يحكم به بينكم فلا تخالفوه .

(والله عليم حكيم) فلا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

(وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار فعاقيتم فاتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا) أى وإن ذهب أزواجكم مرتدات إلى دار الشرك ولم يعطوكم المهور اللاتى دفعت لهن ، ثم ظفرتهم بالمشركين وانتصرتهم عليهم فأعطوا الذين ذهب أزواجهم من الغنيمة مثل ما أنفقوا .

روى عن ابن عباس أنه يعطى الذى ذهب زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس أى قبل أن تقسم أخماساً ، كما هى القاعدة فى تقسيم الغنائم كما تقدم فى سورة الأنفال . (واتقوا الله الذى أتم به مؤمنون) أى وخافوا الله الذى أتم به مصدقون ، فأدوا فرائضه ، واجتنبوا نواهيه .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ عَلَىٰ أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

## شرح المفردات

يباعنك : أى يلتزم لك الطاعة ، ولا يقتلن أولادهن : أى ولا يئدن البنات والمراد بالبهتان المقتري بين أيديهن وأرجلهن : الولد الذى كانت ألصقته بزوجها كذبا ، والافتراء : الكذب ، فى معروف : أى فى أمر برّ وتقوى ، فبايعهن : أى فالتزم لهن ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

## المعنى الجملى

روى البخارى عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ - إلى قوله : غَفُورٌ رَحِيمٌ » فمن أقوت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد بايعتكم » كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة فى المبايعه قط ، ما بايعهن إلا بقوله : قد بايعتكم على ذلك . وروى أحمد عن أميمة بنت رقية التيمية قالت : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : أَلَّا نَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئاً - حتى بلغ - وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَقَالَ : فَمَا اسْتَطَعْتِ وَأَطَعْتِ ، قَلْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، قَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَلَّا تَصَاحِفْنَا ؟ قَالَ إِنْ لَأَصَاحِفُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ » .

## الإيضاح

أى أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات مقدمات لك الطاعة ، ملتزمات ألا يشركن بالله شيئاً من صنم أو حجر ، ولا يسرقن من مال الناس شيئاً ، ولا يزنين ، ولا يئدن البنات كما كنّ يفعلن ذلك فى الجاهلية ، ولا يلصقن أولاد

الأجانب بأزواجهن كذبا وبهتاناً ، ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه كالنوح وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيوب وخش الوجوه ، وألا تخلوا امرأة بغير ذى رحم محرم - فبايعهن على ذلك ، والتزم لهن الوفاء بالثواب إن هن أطعنك فى كل ذلك ، واطلب لهن المغفرة من الله ، إنه هو الغفور الرحيم لمن إذا وقين بما بايعن عليه .

وعن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت : « جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عليها : أَلَا يَشْرِكُنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَمْرُقْنَ وَلَا يَزْنِينَ » الآية ، قال فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت فنعم ، فبايعها بالآية » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَدْسُوا مِنْ  
الْآخِرَةِ كَمَا يَدْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) .

### شرح المفردات

غضب الله عليهم : أى طردهم من رحمته ، من الآخرة . أى من ثوابها ونعيمها ، من أصحاب القبور . أى من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون بيعث ولا نشور .

### المعنى الجملى

نهى سبحانه أول السورة عن موالاته المشركين ، وذكر الموانع التى تمنع من موالاتهم ، ثم أوعد على ذلك ، ولما كان الأمر فى ذلك جد خطير فى سياسة الدولة

الإسلامية ونشر الملة - كرر النهى عن موالاتة الكافرين مرة أخرى ، يهودا كانوا أو نصارى ، ليكون عظة وذكرة لحاطب بن أبى بلتعة ومن ناحجه ممن يفضلون توثيق الصلوات الدينوية على مصلحة الدعوة الدينية ، ويجعلون شئون الدنيا مقدمة على شئون الدين .

روى أن قوما من فقراء المؤمنين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ، ليصيبوا من ثمارهم فنزلت الآية .

### الإيضاح

( يأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم ) أى لاتتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته - أولياء لكم وأصدقاء تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ، ويجول دون تقدم شئون الملة .  
ثم بين أوصافهم ومعتقداتهم فقال :

( قد يؤسوا من الآخرة كما يؤس الكفار من أصحاب القبور ) أى قد يؤسوا من خير الآخرة وثوابها ، اعنادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشر به فى كتابهم ، المؤيد بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات : فهم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له وعلموا أن لاسبيل لهم لنيل نعيمها ، كما يؤس الكفار من بعث موتاهم ، لأنهم لايعتقدون ببعث ولا نشور .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

## خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) النهى عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك .
- (٢) ضرب المثل بقصص إبراهيم وقومه .
- (٣) امتحان النساء المؤمنات المهاجرات وعدم إرجاعهن إلى دار الكفر .
- (٤) مبايعة النساء المؤمنات في دار الإسلام .
- (٥) تأكيد النهى عن موالاة المشركين ، حرصا على شؤون الملة ، ونشر الدعوة .

## سورة الصف

هى مدينة وعدد آيها أربع عشرة ، نزلت بعد التغابن .  
ومناسبتها ما قبلها - أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ،  
وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من  
دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام قال . تذاكرنا أئمتكم يأتى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فيسأله . أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يبق منا أحد ، فأرسل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة .  
(الصف) كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)  
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ  
تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا  
كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)

## شرح المفردات

(لم) أى لآى شىء تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا؟ والمراد بذلك  
التأنيب والتوبيخ على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى عظم ، والمقت : أشد  
البغض وأعظمه ، ورجل مقيت ومقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص :

المحكم، قال المبرد: تقول رصصت البناء إذا لاأمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

## المعنى الجملى

قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لو ردنا أن الله دننا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لاشك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به، وإقرار برسالة نبيه، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية .

## الإيضاح

( سبّح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ) أى شهدله بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال جميع ما فى السموات والأرض، وهو الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، الحكيم فى تدبير خلقه وفقى ما سنّه من السنن، وأرشد إليه من ضروب الهداية .

وبعد أن وصف نفسه بصفات الكمال ذكر ما يلحق المخلوقين من صفات النقص فقال :

( يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ ) أى لأى شىء ولأى غرض تقولون لو ردنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم ولم تفعلوا؟

والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به، وإنما وُجّه إلى القول لبيان أن معصيتهم مزدوجة، وأنهم عملوا جُرمين . فهم تركوا فعل الخير . وقد وعدوا بفعله .

وبهذه الآية استدلل السلف على وجوب الوفاء بالوعد ، وبما ثبت فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا جدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

ثم بين شدة قبح ذلك وأنه بلغ الغاية فى بقض الله له فقال :  
 (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) أى عظم جرماً ما عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .

ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم ، وجميل الخصال ، وبه تكون الثقة بين الجماعات ، فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض ، ويكونون يداً واحدة فيما اتّووا من الأعمال ، والعكس بالعكس ، فإذا فشا فى أمة خالف الوعد قلت الثقة بين أفرادها ، وانحلت عرا الروابط بينهم وأصبحوا عقداً متناثراً لا ينتفع به ، ولا يخشى منهم عدو إذا اشتدت الأزمات ، وعظمت الخطوب ، لما يكون بينهم من التواكل ، وعدم ائتمان بعضهم بعضاً .

وبعد أن ذمّ المخالفين فى أسر القتال وهم الذين وعدوا ولم يفعلوا ، مدح الذين قاتلوا فى سبيله وبالغوا فيه فقال :

(إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) أى إن الله يحب الذين يصفون أنفسهم حين القتال ولا يكون بينهم فرج فيه كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء ، كأنه قطعة واحدة قد صُبت صبا ، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش فى العصر الحاضر .

وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك زادت قوتهم المعنوية ، وتنافسوا فى الطمان والنزال ، والكرّ والقرّ ، إلى ما فى ذلك من إدخال الرّوع والفرع فى نفوس العدو ، إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل بالدقة والإحكام ، ومن ثم أمرنا بتسوية الصفوف فى الصلاة ، وألا يجلس المصلّى فى صف خافى إلا إذا اكتمل ما فى الصف

الأممى ، وهكذا تراعى الأمم في عصرنا الحاضر النظام في كل أعمالها ، في أكلها ونومها ورياضتها وتربية أولادها ، بحيث لا يطفى عمل على عمل ، فلاجِد وقت لا يعدوه ، وللرياضة وقت آخر ، وللنوم كذلك ، ولهذا لا يوجد تواكل ولا تراخ في الأعمال ، ولا تخاذل فيها ، ومن ثم جاء في الأثر .  
« أفضل الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) :

### شرح المفردات

تُوذُونَنِي : أى تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى أصروا على الزيف والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام ، أزاع الله قلوبهم : أى صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق المصرين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال حسان :  
صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

### المعنى الجملى

بعد أن أنب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى حين نديهم إلى قتال الجبارين

بقوله: « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد العصيان، و« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا، فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » وقالوا: « فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وأصرروا على ذلك وأذوه أشد الإيذاء، فوجههم على ذلك بما جاء في الآية الكريمة، وقد صرفهم الله عن قبول الحق وألحق بهم الضيم والذل في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأُنكى. ومثلهم أيضا في عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى: إني رسول الله، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال: إني مبشر رسول سيأتي من بعدى يسمى أحمد، فعصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره.

### الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم؟) أى واذا ذكر لتومك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله حين قال لقومه: لم تؤذوننى وتخالقون أمرى فتتركون القتال وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من رسالة ربى؟ وفى هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم، وأصر له بالصبر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصير» كما أن فيه نهيا للمؤمنين أن ينالوا من النبى صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى كما جاء فى قوله تعالى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْكَوْنَهَا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا».

ثم بين عاقبة عصيانهم ومخالفة أمره بقوله:

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أى فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، وأصرروا على ذلك، صرف الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الخيرة والشك، جزاء

وفاقا لما دسوا به أنفسهم من الذنوب والآثام ، ومخالفة أوامر رسوله ، وانهما كهم في الطغيان والمعاصي ، فران على قلوبهم ، وطمس على أعينهم ، فلم تنظر إلى ما شاهد من دليل ، ولا تبصر ما ترى من برهان كما قال : « وَتَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ثم أكد إزاغته لقلوبهم وبين علتها بقوله :

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) أى والله لا يوفق لإصابة الحق من اختار الكفر ونبذ طاعة الله ورسوله ، بما يرين على قلبه من الضلالة ، فيحرمه النظر إلى الأدلة التي نصبت في الكون ، وجعلت منارة للعقول ، وشفاء للصدور .

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة) أى واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : يا قوم إني مرسل إليكم من الله ، وإني مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعا من تقدم منهم ومن تأخر .

(ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) أى وداعيا إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة ، فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها : أقبل الله من سيناء ، وتجلي من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، معه الربوات الأطهار عن يمينه . « سيدنا مهبط الوحي على موسى ، وساعير مهبط الوحي على عيسى ، وفاران جبال مكة مهبط الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وفىها فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : يا موسى إني سأقيم لبنى إسرائيل نبيا من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامى فى فيه ، ويقول لهم ما أمره به ، والذى لا يقبل قول ذلك النبى الذى يتكلم باسمى ، أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء في الإنجيل ماهو بشارته به — ففي إنجيل يوحنا في الفصل الخامس عشر . قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي ، يعلمكم كل شيء .

وفيه أيضا : قال المسيح من يحفظ كلمتي يحبني ، وأبي يحبه ، وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنني لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم ، أستودعكم سلامي ، لاتقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإني منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبونني تفرحون بمضيي إلى الأب . وفيه أيضا : إن خيرا لكم أن أنطلق لأبي ، لأنني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوضح العالم على خطيئته ، وإن لي كلاما كثيرا أريد قوله ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للأب .

( والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد ، فسره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحمد ، ففي مدلوله إشارة إلى اسمه عليه السلام أحمد ) كما لا يخفى على من كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه .

( فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ) أي فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، فاجثوه بالكذب والإعراض عنه استكبارا وعنادا وقالوا : إن ماجئت به ماهو إلا ترهات وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه . ونحو الآية قوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » الآية .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ؟  
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ  
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) .

### شرح المفردات

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل ، والمراد من إبطال نور  
الله بأفواههم إرادتهم إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفترى ، والله متم  
نوره : أى والله متم الحق ومبلغه غايته ، بالهدى : أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة  
السمحة ، ليظهره : أى ليعليه ، على الدين كله : أى على سائر الأديان .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته صلى الله عليه وسلم من المشركين  
وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مفترى — أردف ذلك ببيان أنهم  
دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ومبدع العالم ، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة  
ونصب لهم المنار، لكنهم ظلموا أنفسهم وجحدوا النور الواضح ، والبرهان الساطع .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم  
ثم بين أن السبب في ذلك هو سوء استعدادهم وتدسيثهم لأنفسهم ، وأن مثلهم  
في صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالفتح بفيه ، وأنى له بذلك ؟  
فإنه متم نوره ، ومكمل دينه مهما جدد المشركون في إطفائه ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم  
ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وبالدين الحق  
الذى لا تجد العقول مطمئنا فيه ، ولا طريقا إلا الاعتراف بما جاء به من حكم  
وأحكام .

## الإيضاح

(ومن أظلم من افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام؟) أى ومن أشد ظلما وعدوانا ممن اختلق على الله الكذب وجعل له أندادا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص؟

وتلخيص المعنى — أى الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام والخضوع ، فلا يجيب الداعى بل يفترى على الله الكذب بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا؟ والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، لأنه قد أهدر عقله ، وركب هواه ، وألقى الأدلة وراءه ظهوريا .

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم فقال :  
 ( والله لا يهدى القوم الظالمين ) أى والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم ، لأنهم دسّوها باجتراح السيئات ، وارتكاب الموبقات ، فحتم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا تفهم الأدلة المنصوبة في الكون ، ولا تهتدى بهدى العقل ، بل تسير في عمية ، وتمشى في ظلام دامس لا تلوى على شىء .  
 ثم ذكر جدّهم واجتهادهم في إبطال الدين ، واستهزأ بما اتخذوه من الوسائل فقال :  
 ( يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ) أى إن مثلهم في مقاومتهم لدعوة الدين ، وجدّهم في إخماد نوره — مثل من ينفخ في الشمس ليفتح نورها ، ويحجب ضياءها ، وأنى له ذلك ؟ فما هو إلا كمن يضرب في حديد بارد ، أو كمن يريد أن يضرم النار في الرماد ، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعانداً من تطيق له عنادا

( والله ثم نوره ولو كره الكافرون ) أى والله معلن الحق ومظهر دينه ، وناصر محمداً عليه الصلاة والسلام على من عاداه ولو كره ذلك الكافرون به .

روى عن ابن عباس « أن الوحي أبطأ أربعين يوماً فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أشيروا ، أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ » الآية .  
ثم بين العلة في إخماد دعوتهم ، وأنه لا سبيل لقبولها لدى العقول فقال :

( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ) أى هو الله الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن والملة الخنيفية ، ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، وقد أنجز الله وعده ، فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

وإنما قال أولا : ولو كره الكافرون ، وقال ثانيا ولو كره المشركون ، لأنه ذكر أولا النور وإطفاءه فاللائق به الكفر ، لأنه ستر وتغطية ، وذكر ثانيا الجاسدين للرسول وأكثرهم من قريش ، فناسب ذكر المشركين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَعْرِفَر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ، فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

## شرح المفردات

التجارة هنا: ما يقدمه المرء من عمل صالح، لينال به الثواب كما قال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ» طيبة: أى طاهرة مستلذة، جنات عدن: أى بساتين إقامة وخلود، قريب: أى عاجل وهو فتح مكة، وحوارى الرجل: صفيه وخليله، وأنصار الله: أى الناصرون لدينه، فأيدنا: أى قوينا وساعدنا، على عدوهم: أى السكفار، ظاهرين: أى غالبين.

## المعنى الجملى

بعد أن حث في الآيات السابقة على الجهاد في سبيله، ونهاهم أن يكونوا مثل قوم موسى في التواكل والتخاذل، إذ قالوا له: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، ونهاهم أيضا عن أن يكونوا مثل قوم عيسى في العصيان بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوته — ذكر هنا أن الإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس في سبيله تجارة رابحة، فإن الجاهد ينال الفوز العاجل، والثواب الآجل، فيظفر بالنصرة في الدنيا والغلبة على العدو وأخذ العنائم وكرائم الأموال، ويحظى في الآخرة بغفران الذنب، ورضوان الرب، والكرامة في جنات الخلود والإقامة، ولا فوز أعظم من هذا.

ثم ضرب لهم مثلا بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين: فرقة آمنت به وهم حواريه، وفرقة كفرت به وهم البقية الباقية منهم، فأمد الله المؤمنين بروح من عنده، فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين، وغلبوهم بإذن الله كما هي سنة الله في البشر كما قال: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» وقال: «إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُذْهِبْ أَعْدَاءَكُمْ»

## الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) أى يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله : ألا أدلكم على صفقة رابحة ، وتجارة نافعة ، تنالون بها الربح العظيم ، والنجح الخالد الباقي .

وهذا أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بما يأتى بعده ، كما تقول : هل أدلك على عالم عظيم ذى خلق حسن ، وعلم فياض ؟ هو فلان ، فيكون ذلك أروع في الخطاب وأجلب لقبوله .

ثم بين هذه التجارة بقوله :

(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) أى اثبتوا على إيمانكم ، وأخلصوا لله العمل ، وجاهدوا بالأنفس والأموال فى سبيل الله بنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

والجهاد ضروب شتى : جهاد للعدو فى ميدان القتال لنصرة الدين ، وجهاد للنفس بقهرها ومنعها عن شهواتها التى تردىها ، وجهاد بين النفس والخلق بترك الطمع فى أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهم ، وجهاد فيما بين المرء والدنيا بألا يتكالب على جمع حطامها ، وألا ينفق المال إلا فيما تحييزه الشرائع ، وتقره العقول السليمة .

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا الإيمان والجهاد خير لكم من كل شئ فى الدنيا من نفس ومال وولد ، إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوده المنافع وفهم المقاصد ، فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها .

ولهذه التجارة فوائد عاجلة وأخرى آجلة ، وقد فصل كلا الأمرين وقدم الثانية فقال :

(يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة

في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) أى إن فعلتم ذلك فأمنتم بالله وصدقتم رسوله ، وجاهدتم في سبيله — ستر لكم ذنوبكم ومحاسنها ، وأدخلكم فراديس جناته وأسكنكم مساكن تطيب لذي النفوس ، وتقرّ بها العيون في دار الخلد الأبدى ، وهذا منتهى ما نسمو إليه النفوس من الفوز الذى لا فوز بعده .

ثم ذكر الفوز العاجل في الدنيا فقال :

(وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) أى ولكم على هذا فوز في الدنيا بنصركم على عدوكم ، وفتحكم للبلاد ، وتمكينكم منها حتى تدين لكم مشارق الأرض ومغاربها .

وقد أمجز الله وعده ، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم في زمن وجيز لم يعهد التاريخ نظيره ، وامتلكوا بلاد القياصرة والأباطرة ، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق .

ثم أمرهم بأن يكونوا أنصار الله في كل حين ، فلا يتخاذلوا ولا يتواكلوا ، فيكتب لهم النصر على أعدائهم كما فعل حوار يون عيسى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله) أى يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، فارفعوا شأن دينه ، وأعلوا كلمته ، كما فعل الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : من أنصارى إلى الله؟ قالوا له : نحن أنصار الله وأنصار دينه .

وقصارى ذلك — كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم ، وأنفسكم وأموالكم ، كما استجاب الحواريون لعيسى .

(فأمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) لما بلغ عيسى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من الحواريين من وازره ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة أخرى إما جحوداً لرسالته ورميه هو وأمه بالعظائم كما فعل اليهود ، وإما بالغلو وإعطائه فوق ما أعطاه الله من مرتبة النبوة ؛

فمن قاتل إنه ابن الله ، ومن قاتل إنه ثالث ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ،  
ومن قاتل إنه الله .

(فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) أى فنصرنا المؤمنين على  
من عاداهم ، وأمددناهم بروح من عندنا على مقتضى سنتنا « والعاقبة للمتقين » فغلبوا  
أعداءهم وظهروا عليهم كما قال « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » فله الحمد على  
ما أعطى ، والمنة على ما أنعم ، وصل ربنا على محمد وآله .

### ما جاء في أثناء السورة من موضوعات

- (١) اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل .
- (٢) البشارة بمحمد على لسان عيسى .
- (٣) محمد صلى الله عليه وسلم أرسل بالهدى والدين الحق .
- (٤) التجارة الراجعة عند الله هي الإيمان والجهاد في سبيله .
- (٥) الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم .

## سورة الجمعة

مدنية وعدد آياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد الصف .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر في السورة قبلها حال موسى مع قومه وأذاه لهم ، ناعياً عليهم ذلك ، وذكر في هذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم وفضل أمته ، تشریفاً لهم ، ليعلم الفرق بين الاثنين .

(٢) إنه حكى في السورة قبلها قول عيسى : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وذكر هنا : ( هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ) إشارة إلى أنه هو الذي بشر به عيسى .

(٣) لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماء تجارة ، ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

## شرح المفردات

القدوس : المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال ، الأمين : هم العرب ، واحدهم أمي نسبة إلى الأم التي ولدته ، لأنه على الحال التي ولد عليها لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على الجبلّة الأولى ، يزكيهم : أى يطهرهم بتلاوة آياته ، وآخرين واحدهم آخر بمعنى غير ، لما يلحقوا بهم : أى لم يلحقوا بهم بعدوسيلحقون ؛ وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين .

## الإيضاح

(يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى كل ما فى السموات والأرض ، إذا نظرت إليه ذلك على وحدانية خالقه ، وعظيم قدرته ، كما قال سبحانه : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ» .

(الملك القدوس) أى هو المالك لما فى السموات والأرض المتصرف فيهما بقدرته وحكمته ، المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله .

(العزيز الحكيم) أى هو الغالب عباده المسخر لهم بقدرته ، الحكيم فى تدبير شئونهم فيما هو أعلم به من مصالحهم ، ويوصلهم إلى سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

ثم وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بصفات المدح والكمال فقال :

(هو الذى بعث فى الأمين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى هو الذى أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الأمة الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب وهم العرب ، أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب» .

وهذا الرسول من جملتهم أى مثلهم ، ومع ذلك يتلو عليهم آيات الكتاب ،

ليجعلهم طاهرين من خباثت العقائد والأعمال ، ويعلمهم الشرائع والأمور العقلية التي تكمل النفوس وتهذبها ، وإلى ذلك أشار البوصيري بقوله :

كفالك بالعلم في الأُمى معجزةً في الجاهلية والتأديب في اليتيم

وتخصيص الأميين بالذكر لا يدل على أنه لم يرسل إلى غيرهم فقد جاء العموم

في آيات أخرى كقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » وقوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وقوله : « لَا نَذِيرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

ومن حكمته تعالى أنه أرسله عربياً مثلهم ، ليفهموا ما أرسل به ويعرفوا صفاته

وأخلاقه ، ليسهل اقتناعهم بدعوته .

وخلاصة ماسلف : أنه ذكر الغرض من بعثة هذا الرسول ، وأجملها في أمور :

(١) أنه يتلو عليهم آيات القرآن التي فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين ، مع كونه أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، لئلا يكون هناك مطعن في نبوته ، بأن يقولوا إنه نقله من كتب الأولين كما أشار إلى ذلك بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُوهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَرْتَابَ اللَّبِطُلُونَ » .

(٢) أنه يطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية ، ويجعلهم منيبين إلى الله مخبتين إليه في أعمالهم وأقوالهم ، لا يخضعون لسلطة مخلوق غيره ، من ملك أو بشر أو حجر .

(٣) أنه يعلمهم الكتاب والحكمة : أي يعلمهم الشرائع والأحكام وحكمتها وأسرارها ، فلا يتلقون عنه شيئاً إلا وهم يعلمون الغاية منه ، والغرض الذي يفعله لأجله ، فيقبلون إليه بشوق واطمئنان ، وقد تقدم مثل هذا في سورة آل عمران .

(وإن كانوا من قبل لقي ضلال مبين) ذاك أن العرب قديماً كانوا على دين إبراهيم ، فبدلوا وغيروا واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، فكان من الحكمة أن يبعث سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم

بشرع عظيم فيه هداية للبشر ، وبيان مأم في حاجة إليه من أمور معاشهم ومعادهم ودعوتهم إلى مانيه رضوان ربهم ، والتمتع بنعيم جناته .  
ونهاهم عما يوجب سخطه ويقربهم إلى النار .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) أى وبعثه في غيرهم من المؤمنين إلى يوم القيامة وهم من جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين من جميع الأمم كالفرس والروم وغيرهم .  
روى البخارى عن أبى هريرة قال : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأُنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ «وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» قال رجل يارسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثاً ، قال وسلمان الفارسى فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : «والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء» .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو ذو العزة والسلطان ، القادر أن يجعل هذه الأمة المستضعفة صاحبة النفوذ والقوة التى تنشر في غيرها من الأمم روح العدل والنظام بإرسال رسول من أبنائها ينقذ الناس من الضلالة إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، وهو الحكيم فيما يفعل من تدبير أمور الخلق لما فيه خيرهم وفلاحهم .

ثم ذكر سبحانه أن إرسال هذا الرسول فضل منه ورحمة فقال :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى وإرسال هذا الرسول إلى البشر من كيا مطهوراً لهم ، هازباً معاصيهم ، فضل من الله وإحسان منه إلى عبادهم ، يعطيه من يشاء ممن يصطفيه من خلقه بحسب ما يعامله من استعداد وصفاء نفسه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وهو سبحانه ذو الفضل العظيم عليهم في جميع أمورهم في دنياهم وآخرتهم ، في معاشهم ومعادهم ، فلا يجعلهم في حيرة من أمرهم بتناهبهم الشكوك والأوهام ، ولا يجدون للخلاص منها سبيلاً ، ولا يجعل قلوبهم يبطش بضعيفهم ويقتصب أموالهم

ويسعى فى الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، فيكون العالم ككرة تتقاذفها أكف اللاعبين ، فهو أرحم بعباده من أن يتركهم سدى هملاً لاصلاح لهم فى دين ولادنيا .

مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

### شرح المفردات

حَمَلُوا التَّوْرَةَ : أى عَمَلُوهَا وَكَتَبُوا الْعَمَلِ بِهَا ، لَمْ يَحْمِلُوهَا : أى لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا فِي تَضَاعِفِهَا ، وَالْأَسْفَارُ : وَاحِدُهَا سَفْرٌ ؛ وَهُوَ الْكِتَابُ الْكَبِيرُ ، هَادُوا : أى تَهَوَّدُوا وَصَارُوا يَهُودًا ، أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ : أى أَحِبَاءُ لَهُ ، بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ : أى بِسَبَبِ مَا اجْتَرَحُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي .

### المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه التوحيد والنبوة ، وذكر أن الرسول بعث للأمم قال لليهود : إن الرسول لم يبعث لنا ، فرد الله عليهم مقابلهم بأنهم لو فهموا التوراة حق

الفهم ، وعملوا بما فيها ، لزاوا فيها نعت الرسول والبشارة به ، وأنه يجب عليهم اتباعه وما مثلهم في حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعا .

ثم رد عليهم مقالا آخر إذ قالوا نحن أحبنا الله وأولياؤه وإنه لن يدخلنا النار إلا أياما معدودات - بأنه لو كان ما تقولونه حقا لتمتيم الموت حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار ، وتذهبوا إلى دار النعيم ، وإنكم لن تعملوا ذلك فأنتم كاذبون فيما تدعون ، ولم تفزروا منه وهو ملاقيكم ولا محالة ؟ وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ويجازيكم عليه ، إن خيرا وإن شرا .

### الإيضاح

( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ) يقول سبحانه ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها : ما مثل هؤلاء إلا كمثل الحمار يحمل الكتب لا يدري ما فيها ، ولا كنه ما يحمل ، بل هم أسوأ حالا من الحمار ، لأن الحمار لا يفهم لها ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها فيما ينفعهم ، إذ حرقوا التوراة فأولوها وبدلوا ، فهم كما قال في الآية الأخرى : « أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وصفة القول : إن هذا النبي الذي تقولون إنه أرسل إلى العرب خاصة ، هو ذلك النبي المنعوت في التوراة والبدشربه فيها ، فكيف تفكرون نبوته ، وكتابتكم يحض على الإيمان به ؟ فما مثلكم في حملكم للتوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يدري ما فيها ، فأنتم إذ لم تعملوا بما فيها وهي حجة عليكم إلا مثل الحمار ليس له إلا ثقل الحمل من غير انتفاع له بما حمل .

ثم بين قبح هذا المثل وشديده ودمه على من يعتله ويتدبره فقال :

(بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أى ما أقيح هذا مثلاً لهم ، لتكذيبهم بآيات الله التي جاءت على لسان رسوله لو كانوا يتدبرون ويتفكرون ، إذ لم يكن لهم ما يشبههم من ذوى العقول والحجا من ملك أو إنس ، بل لا شبيه لهم إلا ما هو أحقر الحيوان وأذله وهو الحمار .

ولا يُقِيم على ضميمٍ يراد به إلا الأذلان عَيْرُ الحىِّ والوَتِدُ هذا على الخسْفِ مربوطٌ برُمَّتهِ وذا يُشجُّ فلا يرثى له أحدٌ

(والله لا يهدى القوم الظالمين) لأنفسهم الذين دسوها حتى أحاطت بهم الخطيئة وأعمت أبصارهم ورائت على قلوبهم ، فلم تر نور الحق ، ولم تشعر بحجة ولا برهان ، بل هي في ظلام دامس لاتمهتدى لطريق ، ولا تصل إلى غاية .

ولما كان من شأن من لم يعمل بالسكتاب الذى أنزل إليه أن يكون محبباً للحياة تاركاً لكل ما ينفعه فى الآخرة قال أسرار رسوله أن يقول لهم :

(قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم على هدى من ربكم ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفتيين ، إن كنتم صادقين فيما تزعمون ، وقد تقدم الكلام فى مثل هذه المباهلة (الملاعنة) لليهود فى سورة البقرة فى قوله : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » كما تقدمت مباهلة النصارى فى آل عمران فى قوله : « تَنْنَ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا رِبًّا بُنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » ومباهلة المشركين فى قوله : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » .

ثم أخبر بأنهم لن يتمنوه أبداً لما يعلمون من سوء أفعالهم وقبيح أعمالهم فقال :

(ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) أى ولا يتمنونه أبدا لعلمهم بسوء أعمالهم لكفرهم بآيات الله وتدسيتهم أنفسهم بالمعاصى والشرور والآثام .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « والذى نفسى بيده لا يقوله أحد منكم إلا غصَّ بريقه » : فلم يتمنَّ أحد لعلمهم بصدقه وأيقنوا أنهم لو تمنوه لما اتوا لساعتهم ، وحق عليهم الوعيد ، وحل بهم العذاب الشديد .

( والله عليم بالظالمين ) ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

( قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ) أى وماذا يجديكم الفرار من الموت ؟ ولماذا تمتنعون من المباهلة خوفا على الحياة ؟ فإنه سيلاقيكم البتة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، فإن كنتم على الحق فلا تحمِلوا بالحياة ، فإن أيام الحياة مهما طال أمدها لا بد من نفاذها .

( ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ) أى ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم غيب السموات والأرض ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من حسن وسيئ ، ثم يجازيكم على كلِّ بما تستحقون .

وغير خاف ما فى هذا من شديد التهديد وعظيم الوعيد لو كانوا يعقلون .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ

الرَّازِقِينَ (١١) .

## شرح المفردات

نودى للصلاة : أى النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مجلس على المنبر ، أما النداء الأول على الزوراء ( أعلى دار بالمدينة حينئذ بقرب المسجد ) فقد زاده عثمان لكثرة الناس ، فاسعوا : أى فامشوا ، وذكر الله : هو الصلاة ، وذروا البيع : أى اتركوه ، فانتشروا : أى فتفرقوا ، من فضل الله : أى من رزقه ، والمراد باللهو : الطبول والمزامير ونحوها ، انفضوا : أى انصرفوا ، قائماً : أى على المنبر وأنت تخطب .

## المعنى الجملى

بعد أن نعى على اليهود فرارهم من الموت حباً فى الدنيا والتمتع بطيباتها - ذكر هنا أن المؤمن لا يمنع من اجتناء ثمار الدنيا وخيراتها مع السعى لما ينفعه فى الآخرة كالصلاة يوم الجمعة فى المسجد مع الجماعة ، فعليه أن يعمل للدنيا والآخرة معا ، فما الدنيا إلا مزرعة الآخرة كما ورد فى الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ثم نعى على المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تشاغلهم عن سماع عظاته وهو يخطب على المنبر بأمور الدنيا من تجارة وضرب دُفٍّ وغناء بالمزامير ونحو ذلك ، وأبان لهم أن ما عند الله من الثواب والنعم المقيم خير لهم من خيرات الدنيا والتمتع بلذاتها الفانية .

## الإيضاح

( يأبىها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ) أى إذا أذن المؤذن بين يدى الإمام وهو على المنبر فى يوم الجمعة للصلاة

فاتركوا البيع واسعوا لتسمعوا موعظة الإمام في خطبته ، وعليكم أن تمشوا الهوينى بسكينة ووقار حتى تصلوا إلى المسجد .

روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ( تسرعون ) وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

وعن أبي قتادة قال : « بينما نحن نصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال ، فلما صلى قال : ما شأنكم ؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة ، قال : فلا تفعلوا ، إذا أتيتم فامشوا وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » رواه البخاري ومسلم .

( ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ) أى ذلكم السعى وترك البيع خير لكم من التشاغل بالبيع وابتغاء النفع الدنيوي ، فإن منافع الآخرة خير لكم وأبقى ، فهى المنافع الباقية ، أما منافع الدنيا فهى زائلة ، وما عند الله خير لكم إن كنتم من ذوى العلم الصحيح بما يضر وما ينفع .  
ثم ذكر ما يفعلون بعد الصلاة فقال :

( فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ) أى فإذا أدت الصلاة فنتفروا لأداء مصالحكم الدنيوية بعد أن أدت ما ينفعكم فى آخرتكم ، واطلبوا الثواب من ربكم ، واذكروا الله وراقبوه فى جميع شئونكم ، فهو العليم بالسر والنجوى ، لا تخفى عليه خافية من أموركم ، لعلكم تفوزون بالفلاح فى دنياكم وآخرتكم .

وفى هذا إيماء إلى شيئين :

(١) مراقبة الله فى أعمال الدنيا حتى لا يظنى عليهم حبا يجمع حطامها بأى الوسائل من حلال وحرام .

(٢) إن في مراقبته تعالى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلأن من راقبه لا يغش في كيل ولا وزن ولا يغيّر سلعة بأخرى ، ولا يكذب في مساومة ، ولا يخلف كذبا ، ولا يخلف موعدا ، ومتى كان كذلك شهر بين الناس بحسن المعاملة وأحبوه وصار له من حسن الأحدثوة ما يضاعف له الله به الرزق ، وأما في الآخرة فيفوز برضوان ربه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » . ويجنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم أجر العاملين .

وعن عراك بن مالك رضى الله عنه أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : « اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين » .  
ثم عاتب سبحانه عباده المؤمنين على ما كان منهم من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال :

( وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ) أى وإذا رأى المؤمنون غير تجارة أو لهوا أسرعوا وتركوك قائما وأنت تحضب الناس .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى في جماعة عن جابر بن عبد الله قال : « بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت غير (إبل محملة طعاما من دقيق و بُرّ و زيت ) فابتدراها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ » .

والذى قدم بهذه التجارة دحية الكلبي من الشام ، وكان إذا قدم لم يبق عاتق ( الشابة حين أدركت ) بالمدينة إلا أنه ؛ ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدمه ، فيخرجوا ليتبعوا منه ، وكان ذلك طريق الإعلان عن التجارة حينئذ .

ثم رغبتهم في سماع العظات فقال :

( قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ) أى قل لهم مبينا خطأ ما عملوا :

ما عند الله مما ينفعكم في الآخرة خير لكم مما يفيدكم في الدنيا من التمتع بخيراتها ،  
وكسب لذاتها ، فتلك باقية ، وهذه فانية .

( والله خير الرازقين ) فأليه سبحانه فاسموا ، ومنه فاطلبوا الرزق ، ولن يفوتكم  
ذلك بسمع عظامه ، فالله كفيل برزقكم ، ولن ينقص بترككم البيع والشراء حين  
الصلاة ، وحين سماع العظات والنصائح .

ولله الحمد في الآخرة والأولى ، وله الحكم وإليه ترجعون .

### خلاصة موضوعات السورة :

- (١) وصفه تعالى نفسه بصفات الكمال .
- (٢) صفات النبي الأمي الذي بعثه الله رحمة للعالمين .
- (٣) النعي على اليهود لتركهم العمل بأحكام التوراة .
- (٤) طلب مباهاة اليهود .
- (٥) الحث على السعي للصلاة يوم الجمعة حين النداء والإمام على المنبر .
- (٦) الأمر بالسعي على الأرزاق بعد انقضاء الصلاة .
- (٧) عتاب المؤمنين على تركهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب قائماً  
وتفرقهم لرؤية التجارة أو اللهو .

## سورة المنافقين

هي مدنية وآياتها إحدى عشرة نزلت بعد الحج .

ووجه اتصالها بما قبلها - أنه ذكر في الأولى حال المؤمنين الذين بعث إليهم النبي الأُمِّي يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها ، وفي هذه ذكر أصدادهم وهم المنافقون الذين يشهدون كذبا بأن محمدا رسول الله ويخلفون الأيمان المحرّجة على ذلك ، ومن ثم كان النبي يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين على العبادة ، وفي الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ، أَلَيْسَ يُؤْفَكُونَ (٤) .

## شرح المفردات

المنافق : من يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، جُنَّةً : أي وقاية وسقرا لدعاتهم وأموالهم ، آمنوا : أي بالسننهم ، كفروا : أي بقلوبهم ، طبع : أي ختم عليها كما يحتم

بالباطح على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شيء ، لا يفقهون : أى لا يعلمون ، تعجبك  
 أجسامهم : أى لصباحتها وتناسب أعضائها ، تسمع لقلوبهم : أى لفصاحتهم وحسن  
 حديثهم ، خشب : واحدها خشب ؛ وهى الخشبة التى نخر جوفها ، والصيحة : الصوت ،  
 فأتاهم الله : أى لعنهم وطردهم من رحمته ، يؤفكون : أى يصرفون عما هم عليه .

## المعنى الجملى

وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هى منتهى الشناعة والقيح :

- (١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون .
- (٢) أنهم لا يبالون بالحلف بالله كذبا ، سترا لنفاقهم ، وحقناً لدمائهم .
- (٣) أنهم جبناء ، فهم على ضخامة أجسامهم ، وفصاحة ألسنتهم ، يظنون أن كل مناد ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

## الإيضاح

( إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ) أى إذا حضر مجلسك  
 المنافقون كمد الله بن أبى وصحبه قالوا نشهد شهادة لانك فى صدقها ، إنك رسول  
 من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه ، رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، تحقيقا لرسالته فقال :

( والله يعلم إنك لرسوله ) أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا  
 ونذيرا ، لتنقذهم من الضلال إلى الهدى .

ثم بين كذبهم فى مقالهم الذى حدثوا به فقال :

( والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ) فيما أخبروا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق  
 ما يقولون ولا تواطىء قلوبهم فى هذه الشهادة .

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين مُحَرِّجة فقال :  
 ( اتخذوا أيمانهم جنة ) أى جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وسترا لحقن دمائهم  
 وحفظ أموالهم ، فيحلفون بالله إنهم لمنكم ، ويقولون : نشهد إنك لرسول الله ،  
 حتى لا تجرى عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيفة .  
 قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة  
 لدمائهم وأموالهم .

وفى هذا تعداد لقبأخ أفعالهم ، وأن من عادتهم أن يستنجئوا بالإيمان الكاذبة ،  
 كما استجئوا بالشهادة الكاذبة .

ثم حكى عنهم جريمة أخرى وهى إضلال الناس وضدم عن الإسلام فقال :  
 ( فصدوا عن سبيل الله ) أى فمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وعن  
 الإنفاق كما حكى عنهم سبحانه بعد .

وقصارى ذلك - أنهم أجرموا جرّمين :

(١) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيشوها لوقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتمخلصوا  
 من المؤاخذة .

(٢) أنهم يمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام وينفرونهم منه متى استطاعوا  
 إلى ذلك سبيلا .

ثم بين قبيح مغبّة ما يعملون ، ووبال ما يصنعون فقال :

( إنهم ساء ما كانوا يعملون ) أى قبيح فعلهم إذ آثروا الكفر على الإيمان ،  
 وأظهروا خلاف ما أضمرُوا ، وسيلقون نكالا ووبالا فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رءوس الأَشهاد ، ويظهر نفاقهم للمؤمنين  
 بنحو قوله : « وَلَا تَصَلُّ عَلَىٰ أَجْدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ  
 كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وأما في الآخرة فحسبهم جهنم وبئس المهاد .

ثم ذكر ما جرأهم على الكذب والاستخفاف بالإيمان المحرجة فقال :

( ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ) أى ذلك الذى فعلوه لسوء سريرتهم ، وقبح طويتهم ، فاستهانوا بما يأتون وما يذرون ، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دعاتهم وأموالهم ، ومن ثم أظهروا للناس إيماناً وأبطنوا كفراً ، وقد خُتم على قلوبهم فلا تهتدى إلى حق ، ولا يصل إليها خير ، ومن جرأ ذلك عموا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول ، وصمت الأذان عن سماع ما يوجب الإيمان ، فهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

ثم ذكر ما لهم من جمال في الصورة واعتدال في القوام فقال :

( وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ) أى لاستواء خلقهم ، وجمال صورهم .

كما وصفهم بالفصاحة وذرابة اللسان فقال :

( وإن يقولوا تسمع لقولهم ) لخلاوة منطقتهم وحسن توقيح حديثهم فإذا سمعهم

سامع أحب أن يُصغى إليهم ، وأن يطول حديثهم جهْد الاستطاعة .

ثم وصفهم بأن أفئدتهم هواء لاعتقول لهم ولا أحلام فقال :

( كأنهم خشب مسندة ) أى هم أشباح بلا أرواح ، لهم جمال في المنظر ، وقبح

في المخبر ، فسدت بواطنهم ، وحسنت ظواهرهم ، فكانت كالخشب الجوفاء التى

نخرها السوس ، فهى مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل ، ولا يستفاد منها خير ،

ولله در أبى نواس :

لا تخذعنك الحى ولا الشور

ترام كالسراب منتشرا

في شجر السرور منهم مثل

له رؤاه وما له ثمره

ثم وصفهم بالجبن والذلة فقال :

( يحسبون كل صيحة عليهم ) أى كلما نادى مناد فى العسكر ، أو انفلتت دابة أو نُشِدَّت ضالة - ظنوا أن العدو قد نجَّاهم ، وأن أمرهم قد افتضح ، وأنهم هالكون لاحالة ، ولقد قالوا : يكاد المريب يقول خذونى ، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد : ضعوه فى يدى ، لما أتى من الرعب فى قلوبهم ، فهم يخافون أن تهتك أسرارهم ، وتكشف أسرارهم ، ويتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وقد نظر المتنبي إلى الآية فى قوله :  
وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

( هم العدو ) الذى بلغ الغاية فى العداوة .

( فاحذرهم ) ولا تأمنهم على سر ، ولا تلتفت إلى ظاهرهم ، فقلوبهم متحرقة حسدا و بغضا ، وأعدى الأعداء العدو المداجى الذى يكاشرك ( يتسم لك ) وتحت ضلوعه الداء الدوى ، والشر المستطير .

ثم زاد سبحانه فى ذمهم وتوبيخهم ، وعجَّب من حالهم فقال :

( قاتلهم الله ) أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فما أقطع حالهم ، وما أشدهم غفلة عن مآلهم .

وهذا تعليم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم ، فكأنه قال : قولوا قاتلهم الله .

( أتى يؤفكون ) أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، وقد كان لهم مدِّ كرفيا حولهم ، وفيما أمامهم من صدق الداعى بما أتى به من البينات الدالة على أنه مرسل من ربه .

وإن تعجب من شىء فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق ، فما أعظمها محنة ، وأعجب بها نقمة ، جازاهم الله بها على سوء أعمالهم ، وقبح فعالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ  
 وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءَ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ  
 أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى  
 يَنْفَضُوا ، وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧)  
 يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ، وَاللَّهُ الْعِزَّةُ  
 وَالرَّسُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) .

## شرح المفردات

لَوَّا رُءُوسَهُمْ : أى حوّلوها استهزاء ، يصدون : أى يعرضون عن القائل ،  
 الْفَاسِقِينَ : أى الخارجين من طاعة الله وطاعة الرسول ، المنهكين فى أنواع الشرور  
 والآثام ، حتى ينفضوا : أى حتى يتفرقوا ، خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : أى خزائن  
 الأرزاق فيهما ، لَا يَفْقَهُونَ : أى لا يعلمون علماً صادراً عن إدراك جلال الله وقدرته ،  
 وَالْعِزَّةُ : أى المنافقون ، وَالْأَذَلُّ فى زعمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ،  
 والعلة والنصر .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر كذب المنافقين فى قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم : نشهد أنك  
 رسول الله ، وبين شنيع أفعالهم ، بترويحها بالأيمان الفاجرة ، ثم أعقبه بذكر جبنهم  
 وصدفهم ، وأنهم أجسام البقال ، وأحلام العصفير ، ثم أردفه ببيان أنهم أعداء الله  
 حقاً ؛ أعقب هذا بذكر ماصدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم ، بما لا يدع شبهة لمن  
 يلتمس لهم المعاذير ، ويبرئهم من النفاق ؛ فن ذلك :

(١) أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليستغفروا لهم على ما فرط منهم من الذنوب ، أما لو أروا وسهم وأعرضوا استكباراً وأنفة أن يفعلوا .  
 (٢) أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بنى المصطلق (قبيلة من اليهود) إلى المدينة لنخرجن الأذلاء محمداً وصحبه منها .

ثم نعى عليهم ما قالوا بأنهم قوم لاحلوم لهم ، ولا هم يفتقرون جليل قدرة الله وبديع صنعه .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غزا بنى المصطلق علا المرسيع (ماء لهم) وهزمهم وقتل وأسر — ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد الغفارى ، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب ، وسنان الجهنى ، وكان حليف عبد الله بن أبى ، واقتتلا فصرخ جهجاه وقال: ياللهاجرين ، وصرخ سنان وقال: يالأنصار ، فأعان جهجاه رجل من المهاجرين ولطم سنانا ؛ فقال عبد الله بن أبى للمهاجرين: ما صحبنا محمداً إلا لنطعم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: ممن كلبك يا كلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعر من الأذل ، ثم قال لقومه: لو أمسكتن عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر: دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق قال: إذا ترعدت أنف كثيرة بيثرب (يريد صلى الله عليه وسلم أنه يهيج الشر) قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأسر به أنصاريا ، قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ثم قال لعبد الله: أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى ، قال: والله الذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك ، وإن زيدا (يريد زيد بن أرقم الذى بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم) لكاذب ، فنزلت هذه الآيات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: يا غلام إن الله صدقك وكذب المنافقين ، فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر

لك ، فلوّى رأسه وقال : أمرتوني أن أومن فأمنت ، وأمرتوني أن أزكى فزكيت ، وما بقي إلا أن أسجد لحمد ، ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات .

## الإيضاح

( وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتمهم يصدّون وهم مستكبرون ) أى وإذا قيل لجماعة المنافقين كعبد الله بن أبيّ : هلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب منكم من ربكم غفران ذنوبكم ، صدوا وأعرضوا ، استكباراً وعتوّاً .

قال الكلبي : لما نزل القرآن بصفة المنافقين مشى إليهم عشايرهم من المؤمنين وقالوا لهم : ويلكم افتضحتم بالنفاق ، وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا إليه من النفاق ، واسألوه أن يغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت الآية :

وقال ابن عباس : لما رجع عبد الله بن أبيّ من أخذ بكثير من الناس مقتته المسلمون وعنفوه وأسمعوه ما يكره ؛ فقال له بنو أبيه : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك ، قال : لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لي ، وجعل يلوّى رأسه فنزلت :

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم فقال :

( سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، إن يغفر الله لهم ) أى الاستغفار لهم وعدمه سياتر لا يجديانهم نفعاً ، لأن الله قد كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم ، وبما اجترحت من الفسوق والآثام ، وبما ران على قلوبهم من الجحود والظفيمان ؛ ثم علل ذلك بقوله :

( إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ) أى إن الله لا يهدي من أحاطت به خطيئته فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلاً تسلكه ، ولا المواعظ والنصائح متسعاً في فؤاده ،

فَأَنَّى لِلْقَلْبِ أَنْ يَهْتَدِيَ ، وَلِلْعَقْلِ أَنْ يَرْعَى ، وَمَا ذَاتُ تَقْيِيدِ الْآيَاتِ وَالنَّذْرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يَمَعْتَلُونَ ؟  
ثم ذكر هتة أخرى لهم فقال :

(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) أى هم الذين يقولون للأَنْصَارِ : لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين يعرضهم الجوع بنابه .

ثم رد عليهم وخطأهم فيما يقولون فقال :  
(ولله خزائن السموات والأرض) أى والله جميع ما فى السموات والأرض من شئ ، وبيده مفاتيح أرزاق العباد ، لا يقدر أحد أن يعطى أحداً شيئاً إلا بمشيئته .  
(واسكن المنافقين لا يفقهون) ذلك ، لجهلهم بسنن الله فى خلقه ، وأن الله قد كفل الأرزاق لعباده فى أى مكان كانوا متى عملوا وجدوا فى الحصول عليها .

ثم ذكر هتة ثالثة لهم وهى أعظماها فقال :  
(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) أى يقول عبد الله ابن أبى ومن يلوذ به من صحبه : لئن عدنا إلى المدينة لنخرجنكم منها أيها المؤمنون فإننا الأقوياء الأشداء الأعزاء ، وأتم الضعفاء الأذلاء .  
ثم رد عليهم مقالهم فقال :

(ولله العزة ورسوله وللمؤمنين) أى والله الغلبة والقوة ، ولن أعزه الله من الرسول والمؤمنين .

روى « أن عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وكان مؤمناً مخلصاً ، سل سيفه على أبيه عند ما أشرفوا على المدينة وقال : لله على ألا أعمدته حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل ، فلم يبرح حتى قال ذلك » .

وروى « أنه وقف واستل سيفه وجعل الناس يبرون عليه حتى جاء أبوه فقال : ورائك ، قال مالك وملك ؟ قال والله : لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله

صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الدليل ، فرجع حتى لقي رسول الله ، وكان إنما يسير ساقية ( في آخر الجيش ) ، فشكا إليه ما صنع ابنه ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن اخلّ عنه يدخل ففعل .

(ولكن المنافقين لا يعلمون) أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله ينصر من ينصره كما قال « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي » وسننه تعالى لا يتبدل فيها ولا تغيير ، وهو لا يد جعل عباده المؤمنين هم الأعداء كما وعد ، وجاعل مخالفه هم الأذلاء .

ولادخل المال والنشب ، ولا للحسب والنسب ، في تلك القوة التي يُمد بها من يشاء ، والنصرة التي يمنحها عباده المخلصين ، وإن الله منجز وعده لنبيه ، كما أنجزه لمن قبله من رسله ، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ كَمَا اتَّقَوْا أَوْسَادَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

### شرح المفردات

لاتقوا الله : أى لاتشفلكم ، وذكر الله : العبادات المذكورة به ، والمال والأولاد يراد بها زخرف الدنيا ، الخاسرون في تجارتهم : إذ ياعوا العظيم بالحقير ، لولا : كلمة تفيد تمنى حصول ما بعدها .

## المعنى الجملى

بعد أن حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء ، وأن المؤمنين هم الأذلاء ، اغترارا بما لهم من مال ونسب ، وأن ذلك هو الذى صدّهم عن طاعة الله ، وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقا ، ويؤدون فرائضه ، ويقومون بما يقربهم من رضوانه ؛ أردف ذلك بنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى ذلك ، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله أثناء الليل وأطراف النهار ، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات ، ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونسب وأولاد وجاه ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ؛ ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم فى أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا حيث لا ينفع الندم ، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليموضوا بعض ما فاتهم ، ولكن أتى لهم ذلك ؛ ولكل نفس أجل محدود لاتعديه ، والله خبير بما يعملون ، وهو مجازيهم على أعمالهم ، إن خيرا وإن شرا .

## الايضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) أى لا يشغلكم تدبير أموالكم ، والعناية بشؤون أولادكم ، عن القيام بحقوق ربكم ، وأداء فرائضه التى طلبها منكم ، واجعلوا للدنيا حظا من اهتمامكم ، وللاخرة مثله ، وهذا ما عناه الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وبهذا امتازت الملة الخنيفية السمحة ، فما طالب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود ، ولا أن يكونوا روحانيين مجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ، ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون ، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ» وقوله : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » .

ثم تواعد من يفعل ذلك فقال :

(ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) أى ومن تلهّ بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه ، وخسرت تجارته ، إذ باع خالداً باقياً ، واشترى فانياً زائلاً ؛ وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة ؟

ومن أهم ما يقرب العبد من ربه ، ويجعله يفوز برضوانه — رحمة البائسين من عباده ، وبذل المال في الوجوه التي فيها سعادة الأمة ، وإعلاء شأن الملة ، وانتشار الدعوة ، ومن ثم قال :

(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) أى وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال ، شكراً على النعمة ، ورحمة بالفقراء من عباده ، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب ، فتنجوا ثمار ما عملتم ، ولا تدخروه في صناديقكم ، وتدعوه لوارثكم ، فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حداً ولا مدحاً ، بل يكسبكم ذماً وقدحاً . وقد جاء في الخبر : « أطمعوا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وجاء أيضاً : « يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما لبست فألبيت ، أو أكلت فأفريت ، أو تصدقت فأبقيت » .

ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار ، وتروا الموت رأى العين ، ثم تمنون أن لو مدّ الله في الأجل ، وأطال العمر ، لتتداركوا ما فات ، وتحسنوا العمل ، وتساعدوا البائسين وذوى الحاجة ، فهيهات هيهات ، فليس ذا وقت الندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

فأنى للعمر أن يطول ، وللحياة أن تزيد ؟ ولكل نفس أجل لا تعدوه ، وعمر

لا يزيد ولا ينقص ؛ فإذا يفيد التنى ، وماذا ينفع الندم والحسرة ؟ وذلك ما عناه سبحانه بقوله :

( ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ) فليكن أن تستعدوا قبل حلول الأجل ،  
وتهيئوا الزاد ليوم المعاد « فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا  
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارٌ حَامِيَةٌ » .

وفي هذا عبرة لمن اعتبر ، ولم يفرط في أداء الحقوق والواجبات .

ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم في كل ما يأتون وما يذرون فقال :

( والله خبير بما تعملون ) فجازيكم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة إعراضاً  
عنه وسخطاً ، وبعداً عن رضوانه : إنك لا تجنى من الشوك العنب .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

### تضمنت هذه السورة شيئين

- (١) وصف المنافقين وبيان سبب خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .
- (٢) حث المؤمنين على الطاعة وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل .

## سورة التَّغَابِنِ

هي مدنية ، وآياتها ثمانى عشرة ، نزلت بعد التحريم .  
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه في السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ،  
وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .  
(٢) نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، وهنا ذكر أن الأموال  
والأولاد فتنة .  
(٣) في السورة السابقة حث على الإنفاق في سبيل الله ، وفي ذكر التغابن  
حث عليه أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ  
مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ  
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) .

## الايضاح

( يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ) أى إن وجود ما في السموات والأرض  
دالٌّ على تزيه الله وكاله ، وإن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له .

(له الملك وله الحمد) فهو المتصرف في جميع الكائنات ، الحمدود على جميع ما يخلق  
ويقدر ، لأنه مصدر الخبرات ، ومفيض البركات .

(وهو على كل شىء قدير) فما أراد كان بلا مناع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .  
ثم ذكر بعض مقدراته تعالى فقال :

(هو الذى خلقكم) أى هو الذى أوجدكم كما شاء على ما شاء .

ثم قسم هذا الخلق فقال :

(فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن) أى فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف  
ما تقتضيه فطرته ، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة كما  
جاء في الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه  
أو يمجسانه » وقد كانت الأدلة الكونية فى الأنفس والآفاق كفيلة أن تردكم إلى  
الحق ، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم ،  
ولكنكم ما فعلتم ذلك ، بل تفرقتم شيعة ، وجحدتم الخالق ، وكفرتم بأنعمه عليكم ،  
بعد أن أفصح الصبح لذي عينين .

(والله بما تعملون بصير) أى وهو البصير بمن هو مستعد للهداية لصفاء نفسه ،  
وزكاء روحه ، فيعطيها ما هو له أهل ؛ ومن خبثت طويته ، وفسدت سجيته ، ودسئ  
نفسه بكبائر الذنوب والآثام ، وسيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم فى جهنم  
« إِنهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان ذكر النعمة الشاملة لخلق العالم كله على أنم  
ما يكون من الحكمة والعدل فقال :

(خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة المتضمنة لمنافع الدين والدنيا  
(وصوركم فأحسن صوركم) حيث أودع فيكم القوى ، والمشاعر الظاهرة والباطنة  
وجعلكم صفوة جميع مخلوقاته ، وخصكم بالخلاصة خصائص مبدعاته ؛ فالإنسان يضم  
زوجا هو من عالم الأزواج ، وبيدنا هو من عالم الأشباح ، وأنشدوا :

وتزعم أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

(وإليه المصير) في الحياة الآخرة ، وهو الذي يجازى كل نفس بما كسبت ، لامعقب حكمه وهو سريع الحساب ، فاصرفوا ما خلق لكم في شكره ، والوفاء بحق نعمه المتظاهرة عليكم ، ظاهرة وباطنة .

(يعلم ما في السموات والأرض) فلا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو يدبرها بحسب علمه الواسع ، وقدرته الشاملة « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم خص بعض ما يعلمه ، عناية بأمره ، إذ عليه الثواب والعقاب فقال :  
(ويعلم ما تسرون وما تعلنون) فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وفق ما يطلبه منكم الدين ، لتنالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته .  
ثم علل هذا بقوله :

(والله علم بذات الصدور) أى لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء في صدره ، واستكن في قلبه ، فلا يخفى عليه ما أسر وما يعلن .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا  
أَبْشَرٌ يَهُدُونَنَا؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) .

### شرح المفردات

ألم يأتكم : هذا الاستفهام للتعجب من حالهم ، والنبا : الخبر الهام ؛ وأصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الطعام الوبيل أى الثقل على المعدة ، والوابل : المطر الثقيل القطر ، ثم استعمل في الضر لأنه يثقل على الإنسان

والأمر: الكفر وعبر به للإيذان بأنه جناية عظيمة وأمر هائل، والبينات: المعجزات، وتولوا: أعرضوا، واستغنى الله: أى أظهر غناه عنهم؛ إذ أهلكهم وقطع دابرهم.

### المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى — حذر المشركين من كفار مكة على تماديهم في الكفر، والجهود بآياته، وإنكار رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبين لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة؛ وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم، وتمادوا في عنادهم، وقالوا: أرسل الله من البشر رسلا؟ فخلت بهم نعمة ربهم؛ وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فأصبحت ديارهم خرابا يبابا، كأن لم يفنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم؛ فيثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النهى.

### الإيضاح

(الم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا نوبال أمرهم ولهم عذاب أليم) أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبا الذين كفروا بالرسول من قبلكم كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم التى أصرت على الكفر والعناد، كيف حل بهم عقاب ربهم، وعظيم نعمته؛ وأرسل عليهم ألوانا من العذاب لا قبل لهم بها؛ فمن صاعقة من السماء تجتاحهم، إلى رجفة فى الأرض تهلكهم، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر، وتمحوهم من صفحة الوجود، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم؛ فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون؛ وسيكون لهم عظيم النكال والنوبال يوم تُجزى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب.

وفي هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم في ذلك مبدأ ،  
لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بين أسباب ما حل بهم من النعمة فقال :

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسالهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ؟ فكفروا وتولوا  
واستغنى الله ، والله غنى حميد) أى إن ما حل بهم من سوء العذاب كان من جراء  
تكذيبهم بالرسول بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ؛ وقالوا: إن من  
العجب العاجب أن يكون هدينا على يدى بشر منا لا ميزة لهم عنا بعقل راجح ،  
ولا سلطان يملك به قيادنا ، ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا ، كما قالت ثمود :  
« أَيْشِرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء  
من عباده كما قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وبعد أن طال عنادهم وتمادوا في غيهم أهلكتهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع  
دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم  
وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ،  
ظاهرة وباطنة .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ  
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ  
الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْهُ  
عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمَطْمِينُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ  
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

## شرح المفردات

زعم فلان كذا : أى ادعى علمه بخصوله ، وأكثر ما يستعمل للدعاء الباطل ،  
بلى : كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما بعده كما وقع فى الآية ، لتبعين : أى لتعاسبن  
وتجزؤن بأعمالكم ، والنور : هو القرآن ؛ وسمى بذلك لأنه بين فى نفسه مبيّن لغيره ،  
والخبير : هو العليم ببواطن الأشياء ، يوم الجمع : هو يوم القيامة ؛ سمي بذلك لأن الله  
يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، والتعابن ، من قولهم : تعابن القوم  
فى التجارة : إذا غبن بعضهم بعضا كأن يبيع أحدهم الشئ بأقل من قيمته ، فهذا غبن  
المبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، وهذا غبن المشتري .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ، ثم إنكارهم للنبوة  
يقولهم : « أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » ثم أعقبه بأنهم سيلقون الوبال والنكال جزاء ما فعلوا -  
أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث ، ثم بإثبات تحققه وأنه كائن لا محالة ، وأن كل  
امرى سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد حين يغيب  
الكفار فى سرائرهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، ويفوز المؤمنون  
فى تجارتهم بالصفقة الرابحة ، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلا  
منه ورحمة .

## الإيضاح

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أى ادعى المشركون أن لا يبعث ولا حساب  
ولا جزاء فقالوا : « أَأَنْذَاكُمْ تَرَابًا أَثْنًا لِنِي خَلَقِي جَدِيدًا ؟ » وقالوا : « مَنْ يَحْيِي  
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ »

فأمر رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله :

( قل بلى وربى لتبعننَّ ثم لتنبئنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير ) أى قل لهم : إن البعث كائن لا محالة ، وإنكم وربى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ستحاسبنَّ على أعمالكم وتجزونَّ على الكثير والقليل ، والنمير والقطمير ، وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَيَسْتَنْبِئُوكَ أَحَقُّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَخَلْقٌ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ » الآية .

وبعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة بما لا مجال معه للإنكار — طالبهم بالإيمان بهما فقال :

( قَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ) أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابه الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات .

ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون فقال :

( وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) فلا تخفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير أو اكدسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .  
( يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ) أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمهم الداعى وينفذهم البصر ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ »

وقوله : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » :

(ذلك يوم التغابن) فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فحسرت صفقتهم ولم يربحوا فيها، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين، وفي الصحيح « ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة، ليزداد حسرة ». . .  
والخلاصة — إنه لاغبن أعظم من أن قوما ينعمون، وقوما يعذبون، وأن قوما مغبونين في الدنيا أصبحوا في الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها .

ثم بين هذا التغابن وفصله بقوله :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينته إلى أمره ونهيهِ — يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار لا يشين فيها أبدا لا يموتون ولا يخرجون منها، وذلك هو الفوز الذى لا فوز بعده، لانطوائه على النجاة من أعظم المهالك، وأجل المخاطر .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) أى والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلتها وآى كتابه الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبدا، وبئس النار مصيرا لهم .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ  
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ  
فَأِنَّمَا عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ  
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

## شرح المفردات

المصيبة : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر ، بإذن الله : أى بقدرته ومشيئته ، يهد قلبه : أى يشرحه لزيادة الخير والطاعة :

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن الناس قسمان : كافر بالله مكذب لرسوله لا يأتوا جهداً فى إيصال الأذى بهم ، ومؤمن بالله مصدق لرسوله وهو يعمل الصالحات - أردف ذلك بيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النظم التى وضعها فى الكون ، فعلى الإنسان أن يجتهد ويعمل ، ثم لا يبالى بعد ذلك بما يأتى به القضاء ، لعلمه بأن ما فوق ذلك ليس فى طاقته ، ولن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وأبان أن تولى الكافرين عن الرسول ان يضيره شيئاً ، فإنه قد أدى رسالته .

وما على الرسول إلا البلاغ ، وأن تلى المؤمن أن يتوكل على الله وحده ، وهو يكفيه شر ما أهمه .

### الإيضاح

( ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ) أى ما أصاب أحداً من خيرات الدنيا ولذاتها أو رزاياها وشرورها - فهو بقضاء الله وقدره بحسب ما وضع من السنن فى نظم الكون ، فعلى المرء أن يعمل ويجتهد ويسعى لجلب الخير ودفع الضر عن نفسه أو عن غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ثم هو لا يحزن ولا يفتن لما يصيبه بعد ذلك ، لأنه قد فعل ما هو فى طاقته وما هو داخل فى مقدوره ، وما بعد ذلك فليس له من أمره شئ .

والتخلّص — إن على المؤمن واجبين :

- (١) السعى وبذل الجهد فى جلب الخير ودفع الضرر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .
- (٢) التوكّل على الله بعد ذلك ، اعتقاداً منه أن كل شىء يحدث فإتّما هو بقضائه وقدره ، فلا يهتم ولا يحزن لدى حلول الشر ، ولا يتأدى فى السرور عند مجىء الخير .

ثم بين أن الإيمان يضىء القلب ، ويشرح الصدر لخير العمل فقال :

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ويشرح صدره ، لازدياد الخير والمضى قدماً فى طاعة الله ، وأى نعمة أعظم من هذه النعمة ؟ جدّ فى عمل الخير ، واستراحة لدى النعم والحزن ، واطمئنان للنفس ، ووثوق بفضل الله .

(والله بكل شىء عليم) أى والله عليم بالأشياء كلها ، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها ، فأحذروه وراقبوه فى السر والعلن ، كما جاء فى الأثر « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلّغ ، وافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنده نهى وزجر ، فإن أعرضتم عن ذلك فإنما عليه أداء ما حمله من الرسالة ، وعليكم ما حتم من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ما عليه ، ولا يكلف شيئاً بعد ذلك .

(الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى وحدوا الله وأخلصوا له العمل وتوكلوا عليه ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

وفى هذا إيمان إلى أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوى إلا به ، لأنه يعتقد أنه لا قادر فى الحقيقة إلا هو ، وفيه حث لرسوله صلى الله عليه وسلم على التوكّل

عليه ، والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، وكأنها تشير إلى أن من لا يتوكل عليه فليس بمؤمن ، وهي كالحاتمة والذليكة لما تقدم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)  
 إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرَّبْتُمْ إِلَى اللَّهِ قَرَبًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) .

### شرح المفردات

فتنة : أى بلاء ومحنة ، ومن يوق : أى من يحفظ نفسه ، والشح : البخل مع الحرص ، والقرض الحسن : هو التصدق من الحلال ، هو التصدق بإخلاص وطيب نفس .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وذكر أن المؤمن ينبغي أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه — ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لأبائهم وأزواجهم يثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ولا تتبعوا أهواءهم حتى لا تكونوا إخوان

الشياطين يزينون لكم المعاصى ويصدونكم عن الطاعة ؛ ثم أوردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، ففصب المال أو غيره لأجلهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ، ومن أقرض الله قرضاً حسناً فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشاهد ، وهو العزيز الحكيم فى تدبير شئون عباده .

أخرج الترمذى والحاكم وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبهم فأُنزل الله : « وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَتَّعَفَّوْا وَتَغْفِرُوا » الآية . وفى رواية عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلنّ ولأفعلنّ ، فجمع الله بينهم فى دار الهجرة فأُنزل الله الآية .

## الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله : إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم يحولون بينكم وبين الطاعات التى تقر بكم من ربكم ، والأعمال الصالحة التى تنفعكم فى آخرتكم ، وربما حملوكم على السعى فى اكتساب الحرام ، واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجته وولده ، يعيرانه بالفقر ، فيركب راكب السوء فيهلك . ومن الناس من يحملهم جهنم والشفة عليهم ، ليكونوا فى عيش رغد فى حياتهم » .

وبعد ماته ، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سببا لذلك ، وإن لم يطالبوه فيه .

ومن المفسرين من حمل العداوة على العداوة الدنيوية وقالوا : إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم ، وجرّ عوم الغصص والآلام ، وربما جرّ ذلك إلى وضع السم في الدسم أو إلى قتلهم ، وفي المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر .

والخلاصة — إنه إما يراد بالعداوة العداوة الأخروية ، فإن الأزواج والأولاد ربما أضروا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها ، وإما أن يراد العداوة في الدنيا فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية .

ثم أرشدهم إلى التجاوز عن بعض هتاتهم فقال :

(وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) أى وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة ، وتصفحوا بالإعراض وترك التشريب عليها ، وتغفروا بإخفائها ، وتمهيد معذرتهم فيها ، فهو خير لكم فإن الله رحيم بكم وبهم ، ويعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم .

ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال :

(إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار ، إذ كثيرا ما يترتب على ذلك الوقوع في الآثام ، وارتكاب كبير المحظورات .  
وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة كما قال : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى » .

أخرج أحمد والطبراني والحاكم والترمذي عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتي المال » .  
(والله عنده أجر عظيم) لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأولاد وطاعتهم ، فلا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم .

( فأتقوا الله ما استطعتم ) أى ابدلوا فى تقواه جهدهم وطاقتكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » .

ونحو هذا ما جاء فى قوله : « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .  
 ( واسمعوا وأطيعوا ) أى كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به ، ولا تحيدوا عنه يئمة ولا يسرة ، ولا ترتكبوا ما نهيتكم عنه .  
 ( وأنفقوا خيراً لأنفسكم ) أى ابدلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا ، وذلك خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ؛ وهذا حث على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال :

( ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغي فى دينه ودنياه ، فيكون محبوباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ومحبه ورضوانه ودخول جناته .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال :

( إن ترضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ) أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، منقرين إليه بإخلاص وظيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف ، ويستركم ما فرط من زلاتكم ؛ جاء فى الصحيحين : « إن الله يقول : من يقرض غير ظالم ولا عديم ؟ » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، ويشتمنى عبدى وهو لا يدرى ، يقول وادهره وادهره » وأنا الدهر ثم تلا أبو هريرة هذه الآية « أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه .

ونحو الآية ماجاء في سورة البقرة : « فَيَضَاعِفُهُ لَهُ أُضْعَافًا كَثِيرَةً » .  
ثم بين علة المضاعفة ورغب في النفقة فقال :  
( والله شكور حلیم ) فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه  
بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .  
ثم ذكر ما يزيد في الترغيب في النفقة أيضا فقال :  
( عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ) أى هو العليم بما غاب عنكم وبما  
تشهدونه ، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه فى أم الكتاب ، لا يعزب عنه مثقال  
ذرة ، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء ؛ وهو ذو العزة والقدرة ، النافذ الإرادة  
الحكيم فى تدبير خلقه على ما يعلم من المصلحة .

### خلاصة ما حوته السورة

- (١) صفات الله الحسنی .
- (٢) إنذار المشركين بذكر ما حلّ بمن قبلهم من الأمم مع بيان السبب فيما نالهم  
من ذلك .
- (٣) إنكار المشركين للبعث .
- (٤) بيان أن ما يحدث فى الكون فهو بأمر الله وتقديره .
- (٥) تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لا يضره إصرارهم على الكفر .
- (٦) إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .
- (٧) الأموال والأولاد فتنة وابتلاء .
- (٨) الحث على التقوى والإنفاق فى سبيل الله .

## سورة الطلاق

هى مدنية ، وآيها ثلثا عشرة ، نزلت بعد سورة الإنسان .  
ومناسبتها لما قبلها - أنه قال فى السورة السابقة : « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ  
وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » وكانت هذه العداوة قد تفضى إلى الطلاق - أرشد هنا  
إلى أحكام الطلاق والانفصال عن الأزواج على أجل وجه . فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ،  
وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ  
بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ،  
لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)

## شرح المفردات

طلقتن النساء : أى أردتم طلاقهن كما جاء فى قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ  
فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، لعدتهن : أى مستقبلين  
عدتهن بأن تطلقوهن فى طهر لا قربان فيه ، وأحصوا العدة : أى اضبطوها وأكلوها  
ثلاثة قروء كوامل ، وأصل الإحصاء العد بالخصى كما كان يستعمل ذلك قديما  
ثم استعمل فى العد والضبط ، والفاحشة المبينة : هى ارتكاب ما يوجب الحد ،  
أو البذاء على الأسماء أو على الزوج ، أو الخروج قبل انقضاء العدة ، وحدود الله :  
شرائعه التى أمر بها ونهى عن تركها ، ظلم نفسه : أى أضرب بها ، والأمر : هو الندم  
على طلاقها والميل إلى رجعتها .

## المعنى الجملى

أمر الله المؤمنين أن يطلقوا نساءهم في الطهر الذي يحسب لهن من عدتهن ، وهو الطهر الذي لا وقاع فيه ، ولا يطلقوهن في حيض لا يعتدون به من قروهن ، كما أمرهم بضبط العدة وحفظها ، والخوف من تعدى حدود الله ، وعدم إخراجهن من مساكنهن التي كنّ فيها قبل الطلاق حتى تنتهى عدتهن إلا أن يأتين بمعصية ظاهرة كالبدء على الأحماء والأزواج أو الخروج من الدار قبل انقضاء العدة ، ومن يتعد هذه الحدود فقد ظلم نفسه وارتكب ما يضرها ويجعلها تقدم على ما فعلت ، ثم أبان حكمة الإبقاء في البيوت، وهي سهولة مراجعتها لميل القلب إليها وتحويله من بغض إلى محبة .

## الإيضاح

( يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ) أى أيها المؤمنون إذا أردتم طلاق نساءكم فطلقوهن لزمان محسوب من عدتهن ، وهو طهر لا قربان فيه حتى لا يطول عليهن زمان العدة، فإن طلقتموهن في زمان الحيض كان الطلاق طلاقاً يدعى حراماً ، والمراد بالنساء المدخول بهن من ذوات الأقران، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن ، وذوات الأشهر سيأتى حكهن فيما بعد .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى فى آخرين عن ابن عمر « أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعقبت منه ثم قال : ليراجعها ثم يسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن بداه أن يطلقها فليطلقها قبل أن يسما ، فذلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء . »

وحص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقودتهم ؛ كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، قاله فى السكشاف .

والخلاصة — إن السنة في الطلاق أن تطلق المرأة وهي طاهرة دون أن يكون قد لامسها في هذا الطهر، أو أن يطلقها وهي حامل بحملا مستبيناً ، ومن هذا قسم الفقهاء الطلاق أقساماً ثلاثة :

(١) طلاق سنة ، وهو أن يطلقها طاهرة من غير قربان ، أو حاملاً حملاً قد استبان .

(٢) طلاق بدعة وهو أن يطلقها حين الحيض أو في طهر قد واقعها فيه ، فلا يُدري أحملت أم لا ، والمر في هذا أنه بعمله هذا أطال عليها العدة ، لأن هذه الحيضة لا تحسب في العدة ، وكذا الطهر الذي بعدها ، لأنها إنما تكون بثلاث حيضات كوامل .

(٣) طلاق لا هو بسنة ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها . وقد روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضي العدة ، وما كان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات . وقال مالك ابن أنس : لا أعرف طلاقاً إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث متفرقة أو مجموعة . وأبو حنيفة وأصحابه يكرهون ما زاد على الواحدة في طهر واحد . وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة بل هو مباح .  
والخلاصة — أن مالكا يراعى في طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأن أبا حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعي يراعى الوقت وحده .

(وأحصوا العدة) أي واحفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، لثلاث تطول على المرأة ، واحفظوا الأحكام والحقوق التي تجب فيها .

وإنما خوطب الأزواج بذلك دون النساء ، لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المرتبة عليه .

(واتقوا الله ربكم) أى واخشوا الله ربكم ، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعديتكم ، وفى القيام بما للمعتدات من حقوق .

وفى وصفه تعالى بالربوبية مبالغة فى وجوب الامتثال لأمره ، لما فى لفظ الرب من التبرية التى هى الإنعام والإكرام على ضروب لاحصر لها .

ثم بين بعض هذه الحقوق فقال :

( لا تخرجوهن من بيوتهن ) أى لا تخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتمن مساكنهن فيها قبل الطلاق ، غضبا عليهن أو كراهة لما كنتمن أو حاجة لكم إلى المساكن ، لأن تلك السكنى حق الله تعالى أوجبه للزوجات ، فليس لكم أن تعدوهن إلا للضرورة ؛ كانهدام المنزل أو الحريق أو السيل أو خوف الفتنة فى الدين .

( ولا يخرجن ) أى لا تأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، إذ السكنى فى البيوت حق الشرع ، فلا يسقط بالإذن ، فإن خرجن ليلا أو نهارا كان ذلك الخروج حراما ولا تنتهى العدة .

ثم استثنى من لزوم المسكن فى البيوت ما إذا دعت الضرورة إلى الإخراج فقال :

( إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ) أى لا يخرجن إلا إذا فعلن ما يوجب حدا من زنا أو سرقة أو غيرها كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب ، أو يبدون على الأحماء أو الأزواج ، فيجلى إخراجهن من بيوتهن لبدأتهن ، وسوء خلقتهن ، أو خرجن متحولات عن منازلهن اللاتى يجب عليهن أن يكملن العدة فيها ، فأى ذلك فعلن فللأزواج إخراجهن من البيوت ، لإتيانهن بالفاحشة الواضحة التى ارتكبتها .

( وتلك حدود الله ) أى هذه الأمور التى بينها لكم من الطلاق للعدة ، وإحصاء العدة ، والأمر باتقاء الله ، وألا تخرج المطلقة من بيتها إلا أن تأتى بفاحشة مبينة - هى حدود الله التى حداها لكم ، فلا تعدوها .

ثم بين عقوبة تجاوز تلك الحدود فقال :

(ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) أى ومن يتجاوز ما شرع الله لعباده من شرائع، وما أبيض له إلى ما لم يبيح فقد ظلم نفسه وأضرَّ بها من حيث لا يدري .  
ثم بين علة هذا الضرر فقال :

( لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ) أى لا تعلم أيها المرء أن الله يقلب القلوب ، فيجعل في قلبك محبة لها ، فتندم على فراقها ، وتود الرجعة إليها ، فلا يتسنى لك ذلك ، لأن الفرصة تكون قد ضاعت ، وما جرَّ ذلك عليك إلا تعدى حدود الله .

والخلاصة — إن من يتعدَّ حدود الله فقد أساء إلى نفسه ، فإنه لا يدري عاقبة ما هو فاعل ، فعمل الله يحدث في قلبه بعد ذلك الذى فعل من التبعدى — أمرا يدعو إلى عكس ما فعل ، فيبدل البغض محبة ، والإعراض إقبالا ، ولا يتسنى له تلافى ذلك برجعة أو استئناف نكاح فتضيع الفرصة ويندم ، ولات ساعة مندم .

### تنبيه

الشريعة الإسلامية — وإن أباحَت الطلاق — بغضت فيه وقبحته وبينت أنه ضرورة لا يلجأ إليها إلا بعد استنفاد جميع الوسائل لبقاء رباط الزوجية الذى حبَّبت فيه وجعلته من أجلِّ النعم ، فرغبت في إرسال حكم من أهله وحكم من أهلها قبل حدوث الطلاق ، لعلهما يزيلان ما بين الزوجين من نفور ، كما رغبت في أن تكون الطلقات الثلاث متفرقات ، لعل النفوس تصفو بعد الكدر ، والقلوب ترعوى عن غيرها ، ولعلهما يندمان على ما فرط منهما فتكون الفرصة مواتية ، ويمكن الرجوع إلى ما كانا عليه ، بل قد يعودان إلى حال أحسن مما كانا .

روى أبو داود عن محارب بن دثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
« ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق » وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال :  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تطلقوا النساء إلا من زينة ، فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات». وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به ، حرّم الله عليها رائحة الجنة» أخرجه أبو داود والترمذى .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ  
وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ كُم يُوعَظُ بِهِ  
مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)  
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ  
بِالْبَالِغِ أَمْرِهِ قَدْرَعَلَّ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) .

### شرح المفردات

فإذا بلغن أجلهن : أى قاربن انتهاء العدة ، فأمسكوهن : أى فراجعوهن ،  
بمعروف . أى مع حسن عشرة ، أو فارقوهن بمعروف : أى مع إعطاء الحق واتقاء  
المضارة ؛ كأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة ، بالغ أمره : أى منفذ حكمه وقضاءه  
فى خلقه يفعل ما يشاء ، قدرا : أى تقديرا وتوقيتا .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بإيقاع الطلاق واحدة فواحدة ، ومنع الخروج من المنزل  
والإخراج منه إلا إذا أتيت بفاحشة مبينة ، ونهى عن تعدى تلك الحدود  
حتى لا يحصل الضرر والندم - خير الرجل إذا شارفت عدة امرأته على الانتهاء  
بين أمرين :

- (١) إما أن يراجعها ويعاشرها بإحسان :
- (٢) وإما أن يفارقها مع أداء حقوقها التي لها مع التفضل والإكرام .
- فإذا اختار الرجعة فليشهد على ذلك شاهدين عدلين قطعاً للنزاع ، ودفعاً للريبة .
- ثم أبان أن هذه الأحكام إنما شرعت للفائدة والمصلحة . ثم ذكر قاعدة عامة وهي أن تقوى الله تفتح السبل للعز وتخرجه من كل ضيق ، وتهديه إلى الطريق المستقيم في دينه ودنياه ، وأن من يتوكل على ربه ، يكفه ما أهمه ، ويفرج عنه كربته .
- ثم ذكر أن أمور الحياة جميعاً بقضاء الله وقدره ، فلا يجزع المؤمن مما يصيبه من النوائب ، ولا يفرح ويبطر بما يناله من خيراتها .

### الإيضاح

( فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ) أى فإذا قاربت العدة على الانتهاء فإن شئتم فأمسكوهن وراجعوهن مع الإحسان فى الصحبة وحسن العشرة ، وأداء الحقوق من النفقة والكسوة ، وإن صمتم على المفارقة فلتكن بالمعروف وعلى وجه لا عنف فيه ولا مشاكسة ، مع إيفاء ما لهن من حقوق لديكم كمؤخر صداق ، وإعطاء متعة حسنة تذكركن بفضلها ، ويتحدث الناس بحسن أحدوتها ، ويكون فيها جبر لخاطرهن ، لما لهن من ضرر بالفراق ، وليكون فيها بعض السلوة لهن عما فقدنه من العشير والأئيس .

ثم بين ما يحسن إذا أرادوا الرجعة فقال :

( وأشهدوا ذوى عدل منكم ) أى وأشهدوا على الرجعة إن اخترتموها شاهدين من ذوى العدالة ، حسماً للنزاع فيما بعد ، إذ ربما يموت الزوج فيدعى الورثة أن مورثهم

لم يراجع زوجته ، لم يمنعوها ميراثها ، ودفعاً للقييل والقال وتهمة الريبة ، ومخافة أن تنكر المرأة الرجعة لتقضى عدتها ، وتنكح زوجا غيره .

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعي حين الرجعة ، مندوب حين الفرقة ، ويرى أبو حنيفة أن الرجعة لا تقتصر إلى الإشهاد كسائر الحقوق .

ثم خاطب الشهود زجراً لهم فقال :

( وأقيموا الشهادة لله ) أي واشهدوا على الحق إذا استشهدتم ، وأدوا الشهادة على الصحة إذا أتم دُعيتم إلى أدائها .

وإنما حث على أداء الشهادة ، لما قد يكون فيه من العسر على الشهود ، إذ ربما يؤدي ذلك إلى أن يترك الشاهد مهامّ أموره ، ولما فيها من عسر لقاء الحاكم الذي تؤدي عنده ، وقد يبعد المكان ، أو يكون للشاهد عوائق تحول بينه وبين أدائها .

( ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ) أي هذا الذي أمرتكم به ، وعرفتم عنه من أمر الطلاق ، والواجب لبعضكم على بعض حين الفراق أو الإمساك ، عظة منا لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ليعمل على نهجها وطريقها .

ثم أتى بجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتي ، لتأكيد ما سبق من الأحكام والخروج من مشاكلاهما بعد انقضاء الله فقال :

( ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ) أي ومن يخش الله فلا يطلق المرأة في الحيض حتى لا تطول عدتها ولا يضارّ المعتدة فلا يخرجها من مسكنها ، ويحفظ بالإشهاد حين الرجعة - يجعل الله له مخرجا مما عسى أن يقع فيه من الغم ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب ، ويرزقه من جهة لا تحظر ببالة ولا يحتسبها .

والخلاصة - من اتقى الله جعل له مخرجا من غم الدنيا وهم الآخرة وغمرات الموت وشداأد يوم القيامة .

روى عن ابن عباس أنه قال : « جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : إن ابني أسره العدو وجزعت أمه ، فم تأمرني ؟ قال أسرك وإياها أن تستكثرا من قول : « لاحول ولا قوة إلا بالله » فقالت المرأة : نعم ما أسرك ، فجعلنا يكثران منها ، فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فزلت هذه الآية » أخرجه ابن مردويه .

وفي الآية إيماء إلى أن التقوى بلاك الأمر عند الله ، وبها نيطة السعادة في الدارين ، وإلى أن الطلاق من الأمور التي تحتاج إلى فضل تقوى ، إذ هو أبغض الحلال إلى الله ؛ لما يتضمنه من إباحاش الزوجة وقطع الألفة بينها وبين زوجها ، ولما في الاحتياط في العدة من المحافظة على الأنساب وهي من أجل مقاصد الدين ، ومن ثم شدد في إحصاء العدة حتى لا تختلط ويكون أمرها فوضى .

وروى عن ابن مسعود أنه قال : إن أجمع آية في القرآن : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وإن أكبر آية في القرآن فرجا : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » .

( ومن يتوكل على الله فهو حسبه ) أى ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه - كفاه ما أهمه في دنياه ودينه ، والمراد بذلك أن العبد يأخذ في الأسباب التي جعلها الله من سننه في هذه الحياة ، ويؤديها على أمثل الطرق ، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علها ، وليس المراد أن يلقى الأمور على عواهنها ويترك السعى والعمل ويفوض الأمر إلى الله ، فإبهذا أمر الدين بدليل قوله تعالى : « وَأَعْبُدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » وقرنه صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » إلى نحو ذلك مما هو مستفيض في الكتاب والسنة .

وروى عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال

له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام إني معامك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه فقال :

( إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ) أى إن الله تعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء ، وقد جعل لكل شيء مقدارا ووقتا ، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو ، فالأمور مرهونة بأوقاتها ، ومقدرة بمقادير خاصة ، كما قال : « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » .

وَاللَّاتِي يَيْئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبِتُمْ فَعَدِيْتُمْ  
ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَاللَّاتِي لَمْ يَحِيضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَاهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ  
حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ  
أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ  
أَجْرًا (٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الطلاق السنى إنما يكون في طهر لا واقع فيه ، ولم يبين مقدار العدة وكان قد ذكر في سورة البقرة التي نزلت قبل هذه أن عدة الحائض ثلاثة قروء ذكر هنا عدة الصغار اللاتي لم يحضن ، والكبار اللاتي يئسن من الحيض ، وأنها ثلاثة

أشهر ، وعدة الحامل وأنها تكون بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها .

أخرج الحاكم والبيهقي في جماعة آخرين عن أبي بن كعب أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت آية البقرة في عدة النساء قالوا لقد بقي من عدة النساء عدد لم تذكر في القرآن ، الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل فأنزل الله تعالى في سورة النساء القصرى : « وَاللَّائِي يَتُسَّنَّ » الآية .

وروى أن قوما منهم أبي بن كعب وخلاد بن النعمان « لما سمعوا قوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » قال يارسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبير ؟ فنزلت : « وَاللَّائِي يَتُسَّنَّ » الآية .

### الايضاح

(واللائى يتسن من الحيض من نساكنكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن ) أى واللائى بلغن سن اليأس فانقطع حيضهن لسكبرهن بأن بلغن سن الخامسة والحسين فما فوقها فعدتهن ثلاثة أشهر ، وكذا الصغار اللواتى لم يحضن ، إن شككنم وجهاتكم كيف تكون عدتهن وما قدرها .

(وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ) أى وعدة الحوامل أن يضعن حملهن سواء كنّ مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن كما روى عن عمر وابنه ، فقد أخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبه وابن المنذر عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إذا وضعت حملها فقد حلت ، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن حلت . وهكذا روى عن ابن مسعود فقد أخرج عنه أبو داود والنسائى وابن ماجه أنه قال : من شاء لاعنته أن الآية التى فى النساء القصرى « وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ » الآية نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهرا ، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها .

وروى أن سُبَيْعَةَ بنت الحَرِثِ الأَسْلَمِيَّةِ كانت تحت سعد بن خولة فتوفى عنها  
في حجة الوداع وهي حامل فوضعت بعد وفاته بثلاثة وعشرين يوما ، فاختضبت  
واكتحلّت وتزيتت تريد الزواج ، فأنكر ذلك عليها ، فسئلت النبي صلى الله عليه وسلم  
فقال : « إن تفعل فقد خلا أجالها » .

( ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ) أى ومن يخف الله ويرهبه ، فيؤدى  
فرائضه ويحْتَنِبُ نَوَاهِيه — يسهل عليه أموره ، ويجعل له من كل ضيق قرجا ،  
وينزله طريق الهدى فى كل ما يعرض له من المشكلات ، فإن فى قلب المؤمن نورا  
يهديه إلى حلّ عويصات الأمور .

وفى الآية إيماء إلى فضيلة التقوى فى أمور الدنيا والآخرة ، وأنها الخرج من كل  
ضيق يعرض للمرء فيهما .

( ذلك أمر الله أنزله إليكم ) أى هذا الذى شرع لكم من الأحكام السالفة  
فى الطلاق والسكنى والعدة — هو أمر الله الذى أمركم به وأنزله إليكم لتأتمروا به ،  
وتعملوا وفق نهجه .

ثم كرر الأمر بالتقوى لأنها ملاك الأمر وعماده فى الدنيا والآخرة فقال :  
( ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ) أى ومن يخف الله فيؤدِّ  
فرائضه ويحْتَنِبُ نَوَاهِيه — يمح عنه ذنوبه كما وعد بذلك فى كتابه : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ  
يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ويجزل له الثواب على يسير الأعمال .

أَسْكِنُواهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ  
لِتَضَيَّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ  
حَمَلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَنَاتِكُمْ  
بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَنَاسَرْتُمْ فَسَرِّضْهُنَّ لِهِنَّ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقُوا ذُوقُوا سَعَةَ

مِنْ سَعْتِهِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ  
نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

## شرح المفردات

من وجدكم : أى من وسعكم ، وقال الفراء: أى على قدر طاقتكم ، ولا تضاروهن :  
أى فى النفقة والسكنى ، اتضيقوا عليهن : أى لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المسكن  
أو بإسكان من لا يُرِدُن السكْنى معه ، ائتمروا : أى تأمروا وتشاوروا ، بمعروف : أى  
بجميل فى الأجر والإرضاع فلا يكن من الأب مما كسه ولا من الأم معاسرة ، وإن  
تعاسرتم : أى ضيق بعضكم على بعض بالمشاقفة فى الأجر أو بطلب الزيادة ، قدر عليه :  
أى ضيق ، آتاه الله : أى أعطاه ، ما آتاه : أى إلا بقدر ما أعطاه من الأرزاق  
قلّ أو جلّ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقدار العدة للصغار والكبار والحوامل — أرشد إلى ما يجب  
للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة ، ثم أردف ذلك ببيان أن الحوامل  
لهنّ النفقة والسكنى مدة الحمل بالغة ما بلغت ، فإذا هنّ ولدن وجب لهنّ الأجر على  
إرضاع المولود ، فإن لم يتفقا عليه أتى بمرضع أخرى يدفع الأب نفقتها ، والأم أحق  
بالإرضاع إذا هى رضيت بمثل أجرتها ، والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر  
ما يستطيع ، فالله لا يكلف نفساً إلا ما تطيق .

## الإيضاح

( أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم ) أى أسكنوا مطلقات نسائكم  
فى الموضع الذى تسكنون فيه على مقدار حالكم ، فإن لم تجدوا إلا حجرة بجانب

حجرتكم فأسكنوها فيها ، وإما أمر الرجال بذلك ، لأن السكني نوع من النفقة وهي واجبة على الأزواج .

ثم نهى عن مضاراة المطلقات في السكني فقال :

(ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) أى ولا تستعملوا معهن الضرار في السكني يشغل المكان أو يسكنان غيرهن معهن ممن لا يجهن السكني معه ، لتلجئوهن إلى الخروج من مساكنهن .

ثم بين نفقة الحوامل فقال :

(وإن كنَّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) لأنه بالوضع تنقضى العدة ، وهذا حكم المطلقة طالقة بائة ، أما المطلقة طالقة رجعية فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملا .

وقال أبو حنيفة : تجب النفقة والسكني لكل مطلقة وإن لم تكن ذات حمل لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في المبتوتة : « لها النفقة والسكني » ، لأن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحامل وغيرها .

ثم بين حكم إرضاع الطفل بعد ولادته فقال :

(فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) أى فإن أرضعن لكم وهن طوالق قد بنَّ بانقضاء عدتهن ، فلهن حينئذ أن يرضعن الأولاد ولهن أن يمتنعن ، فإن أرضعن فلهن أجر المثل ويتفقن مع الآباء أو الأولياء عليه .

وفى هذا إيحاء إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج ، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات .

(وأتمروا بينكم بمعروف) أى وتشارروا فيما بينكم أيها الآباء والأمهات في شئون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية والحلقية والثقافية ، ولا تجعلوا المال عقبة

في سبيل إصلاحهم ، ولا يمكن من الآباء مما كسة في الأجر وسائر النفقات ، ولا من الأمهات معاصرة وإحراج للآباء ، فالأولاد هم فلذات أكبادهم ، فليحافظوا عليهم جهد المستطاع .

ثم أرشد إلى ما يجب أن يعمل إذا لم يحصل الوفاق بين الأبوين في الإنفاق فقال : ( وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ) أى وإن ضيق بمضكم على بعض بأن شاح الأب في الأجر ، أو اشتطت الأم في طلب زيادة لا يؤديها أمثاله ، فليخضِر الأب مرضعا أخرى تقوم بالإرضاع ، فإن رضيت الأم بمثل ما استوجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها .

وفي الآية إيعاء إلى معاتبة الأم ، فهو كقولك لمن تطلب منه حاجة فيتوانى في قضائها : إن لم تقضها فسيقضيها غيرك ، وكأنه قال له : إنها ستقضى وأنت ملوم . وإتاما خص الأم بالاعتاب ، لأن الميذول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو ليس بمال ولا مما يضمن به في العرف ولا سيما من الأم ، والميذول من جهة الأب هو المال وهو مضمون به في العادة ، فهي إذا أجدر باللوم وأحق بالعتب .

هذا إذا قبل الولد ندى مرضع أخرى ، فإن لم يقبل إلا ندى الأم وجب عليها الإرضاع .

ثم بين مقدار الإنفاق بقوله :

( لينفق ذو سعة من سعته ) أى لينفق الوالد على المرضع التي طُلقت منه بقدر

سعته وغناه .

( ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ) أى ومن كان رزقه بمقدار القوت

فحسبُ فلينفق على مقدار ذلك .

( لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاهها ) أى لا يكلف الله أحداً من النفقة على من

تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا بمقدار ما آتاه من الرزق ، فلا يكلف الفقير مثل

ما يكلف الغنى .

ونحو الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

ثم بين أن الأرزاق تتحول من عسر إلى يسر والعكس بالعكس فقال :  
( سيجعل الله بعد عسر يسرا ) أى سيجعل الله بعد شدة رخاء ، ومن بعد ضيق  
سعة ، ومن بعد فقر غنى ، فالدنيا لا تدوم على حال كما قال سبحانه : « إِنَّ مَعَ  
الْعُسْرِ يُسْرًا » .

وهذا كالبشرى للمؤمنين الذين كان يغلب عليهم الفقر والفاقة في ذلك الحين .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَمَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَخَاسَبْنَاهَا حِسَابًا  
شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ  
أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ  
الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ  
آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ  
إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) .

### شرح المفردات

وكأين من قرية : أى كثير من أهل القرى ، عمت : أى تجبرت وتكبرت ،  
نكراً : أى منكراً عظيماً ، وبال أمرها : أى عاقبة عتوها ، خسراً : أى خسارة  
في الآخرة ، ذكراً : أى قرآناً ، رسولا : أى وأرسل رسولا .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر بأن الطلاق لا يكون إلا في أوقات خاصة ، وبأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزوج آخر ، وذكر مدة العدة وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة ، ونهى عن تجاوز حدود الله ، وأن من يتجاوزها يكون قد ظلم نفسه ؛ وتعد هنا من خالفوا أمره ، وكذبوا رسله ، وسلكوا غير ما شرعه ، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السالفة التي كذبت رسلها ، فأخذها أخذ عزيز مقتدر ، وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً في الآخرين .

## الإيضاح

(وكأئین من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً) أى وكثير من أهل القرى خالفوا أمر ربهم ، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم وتجاوزوا في طغيانهم يعمهون ، فحاسبناهم حساباً عسيراً ، فاستقصينا عليهم ذنوبهم ، وناقشناهم على النقيز والقطمير ، وعذبناهم عذاباً نكراً في الآخرة ، وعبر بالماضى عن المستقبل دلالة على التحقق كما في قوله تعالى : « وَنَفِخْ فِي الصُّورِ » .

ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم فقال :

(فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرًا) أى فحنت ثمار ما غرست أيديها ولا يُجنى من الشر إلا الشر كما جاء في أمثالهم : إنك لا تجنى من الشوك العنب . فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذى لا يُقدر قدره .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله :

(أعد الله لهم عذاباً شديداً) أى هيباً الله لهم العذاب المرتقب ، لتماديهم

في طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاءوا به من عند ربهم .

ثم نبه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم فقال :

(فأتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا) أى تخافوا أيها المؤمنون عقاب الله ، فأتى أصحاب العقول الراجحة ، والفطر السليمة ، واحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم ، وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

ثم بين ما يكون مذكرا لهم وداعيا لتقوى الله فقال :-

(قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى قد أنزل الله إليكم يادوى البصائر ذكرا لكم وهو القرآن الكريم يذكركم به ، لتستمسكوا بحبله المتين وتعملوا بطاعته وأرسل إليكم رسولا يتلو عليكم آيات هذا الكتاب الذى أنزل عليه ، وهى واضحات لمن تدبرها وعقلها ، كى يخرج من لديه استعداد لاهدى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إذا هو أنعم فى النظر فيها ، وأجال الفكر فى أسرارها ومغازيها ، فهى النبراس الساطع ، والضوء اللامع ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثم بين جزاء الإيمان والعمل الصالح فقال :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) أى ومن يصدق بالله وعظيم قدرته ، وبدع حكمته ، ويعمل بطاعته -- يدخله ساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ما كثرين فيها أبدا لا يموتون ولا يجرجون منها ، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ

بَيْنَهُنَّ ، لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

## المعنى الجملى

بعد أن أنذر سبحانه مشركى مكة بأنهم إن لم يتبعوا أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم يحل بساحتهم مثل ما حل بسائر الأمم قبلهم ممن كذبوا رسلهم وعتوا عن أمر ربهم فاستؤصلوا وبادوا فى الدنيا ، وسينحل بهم العذاب الذى لا مرد له فى الآخرة — ذكر هنا عظيم قدرته وسلطانه ، وبديع خلقه للعالم العلوى والسفلى ليكون ذلك باعثا على اتباع ما شرع من الدين ، واستجابة دعوة الرسول ، والعمل بما أنزل عليه من تشريع فيه سعادة الدارين .

## الإيضاح

(الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى الله هو الذى خلق السموات السبع وخلق مثلهن فى العدد من الأرضين .

وهذا الأسلوب فى اللغة لا يفيد الانحصار فى السبعة ، وإنما يفيد الكثرة ، فالعرب تعنى فى كلامها بذكر السبعة والسبعين والسبعائة الكثرة حسب ؛ ويؤيد هذا أن علماء الفلك فى العصر الحاضر قالوا : إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشمس العظيمة التى نسميها نجوما لا يقل عن ثلثمائة مليون أرض ، ولا شك أن هذا قول هو بالظن أشبه منه باليقين .

روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » .

وروى عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى : « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » الآية قوله : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها .

وهذا من الخير دليل على أن هناك عوالم كثيرة لا يجدر بالعلماء أن يتحدثوا عنها العامة ، فإن عقولهم تضل في فهمها ، فلتبقى في صدور العلماء وأهل الذكر حتى لا يفتنوا بها .

( ينزل الأمر بينهن ) أى يجرى أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، فهو يدبر ما فيها وفق علمه الواسع ، وحكمته في إقامة نظامها ، بحسب العدل والمصلحة .

أخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة قال : « في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه تعالى ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضاائه عز وجل » .

( تعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً ) أى ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك ، كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه شئ أرادته ، ولا يتمتع عليه أمر شاءه ، فهو على ما يشاء قدير ، ولتعلموا أن الله بكل شئ من خلقه محيط علماً لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

خافوا أيها المخالفون أمر ربكم فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع ، وهو قادر على ذلك ، ومحيط بأعمالكم لا يخفى عليه منها خاف ، وهو محصيا عليكم ، ليجازيكم بها يوم تجزي كل نفس بما كسبت .

### ما تضمنته هذه السورة من الشؤون

اشتملت هذه السورة على أحكام شرعية ، ومناهج دينية ، وفتاوى إسلامية ، وضعت لإقامة العدل بين الخلق ؛ وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا للحجة من نور العدل العام ، وقبضة من فيضه ، وزهرة من شجرته ، فإن قضى القضاة على كراسي الحكم بين العباد ، فأعطوا زيداً ما يجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، فكم بين السموات والأرض من قضاء في هذا

الفضاء الواسع الصامت لفظاً ، الناطق معنى ، وكم من حكم بيننا نرى أثره ، ولا نسمع النطق به ، نرى الشمس محكوماً عليها أن تطلع من مواضع في المشرق ، وتغرب في مواضع في المغرب لا تجوزها ، ونرى الرياح محكوماً عليها ، والسحب مأمورة ، والأنهار جارية ، والمزارع قد حكم عليها أن تكون في زمن خاص ، وأمكنة خاصة ؛ فليس للقطن أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر في زمن الشتاء ، ولا للثفل أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وكل ذلك حكم لمصلحة الناس ، ومعادتهم في دنياهم .

فانظر أى الحكيم أكثر منفعة ؟ أحكم لمصلحة أشخاص متنازعين ، أم حكم لمصلحة هؤلاء المتنازعين من كل أهل ملة ودين ؟

## سورة التحريم

هي مدنية ، وأياها ثنبا عشرة ، نزلت بعد الحجرات : **سورة التحريم** : ومناسبتها لما قبلها :

(١) أن سورة الطلاق في حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن ، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعليما لأُمَّته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأن ينصحوهن نصحا مؤثرا .

(٢) أن كليهما افتتجا بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) أن تلك في خصام نساء الأمة ، وهذه في خصومة نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أفردين بالذكر تعظيما لمسكاتهن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ

أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ تَابِيَّاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

### شرح المفردات

تحرّم : أى تمتنع ، ما أحل الله لك : هو العسل ، يتنقى : أى تطلب ، فرض : أى شرع وبين كما جاء فى قوله : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا » ، وتحلة أيانكم : أى تحليلها بالكفارة ، وتحلة القسم تستعمل على وجهين :

(١) أحدها تحليله بالكفارة كما فى الآية .

(٢) ثانيهما معنى الشئ القليل وهذا هو الأكثر كما جاء فى الحديث : « لن يلج النار إلا تحلة القيم » أى إلا زمننا يسيرا .

مولاكم : أى وليكم وناصركم ، بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور ، نبات به : أى أخبرت عائشة به ، وأظهره : أى أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة ، عرف : أى أعلمها ببعض الحديث الذى أفشته ، وأعرض عن بعض : أى لم يخبرها به ، إن تتوبا : أى حفصة وعائشة ، صفت قلبكما : أى عدات ومات إلى ما يجب للرسول صلى الله عليه وسلم من تعظيم وإجلال ، وإن تظاهرا عليه : أى تظاهرا وتعاونتا على إيذاء الرسول ، مولاة : أى وليه وناصره ، ظهور : أى ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون ، مسلمات : أى خاضعات لله بالطاعة ، مؤمنات : أى مصدقات بتوحيد الله مخلصات ، قانتات : أى مواظبات على الطاعة ، تائبات : أى مقدمات عن الذنوب ، عابدات : أى متعبدات متذلللات لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، سائحات : أى صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث إن السائح لا زاد معه ، ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام ؛ كالصائم لا يزال كذلك حتى يجىء وقت الإفطار .

## المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلواء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نساءه ، وكان يكثر عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، فتواطأتُ أنا وحفصة أن أيقنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له : : إني أجد منك ريح مغاير ، أكلت مغاير (صمغ خلوة له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرْفُط يكون بالحجاز) ، فقال لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له وقد حلفتُ ، لا تخبرى بذلك أحدا . »

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن التي دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرّم على نفسه العسل أمامها هي حفصة فأخبرت عائشة بذلك ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرها به من الحديث الذى يسرها ويسر عائشة ، أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدى ، فالسر كان لها بأمرين :

(١) تحريم العسل الذى كان ينبغيه عند زينب .

(٢) أمر الخلافة لأبويهما من بعده .

## الإيضاح

(يأبىها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تتبغى مرضاة أزواجك ؟) أى يأبىها النبي

لم تتمتع عن شرب العسل الذى أحله الله لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وهذا عتاب من الله على فعله ذلك ، لأنه لم يكن عن باعث مرضى ، بل كان

طلباً لمرضاة الأزواج .

وفى هذا تنبيه إلى أن ما صدر منه لم يكن مما ينبغي لمقامه الشريف أن يفعله .

وفي ندائه صلى الله عليه وسلم بيايها النبي في مفتتح العتاب حسن تल्पف ، وتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ما جاء في قوله : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، رحيم بهم أن يعاقبهم على ما تابوا منه من الذنوب وإنما عاتبه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليقين أو بدونه ، تعظيماً لقدره الشريف ، وإجلالاً لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى يعدّ كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك .

(قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى قد شرع لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها ، فعليك أن تكفر عن يمينك . وقد روى «أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن يمينه فأعتق رقبة (عبداً أو أمة)» .

(والله مولاكم) أى والله متولى أموركم بنصركم على أعدائكم ، ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وآخرتكم ، ومنير لكم طرق الهداية إلى ما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم .

(وهو العليم الحكيم) أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهىكم إلا وفق ما تقتضيه المصلحة . ثم ساق ما هو كالدليل على علمه فقال :

(وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض) أى واذكر حين أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعها الله على ما دار بين حفصة وعائشة بما كان قد طالب من حفصة أن تكتمه — أخبر حفصة

ببعض الحديث الذي أفشته وهو قوله لها : كنت شربت عسلاً عند زينب .  
 بلت جحش فلن أعود ، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها  
 به تكراً منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يود أن  
 يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

( فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير ) أى فلما أخبر  
 حفصة بما دار بينها وبين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظناً منها أن  
 عائشة قد فضحت ما يخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أخبرني ربي العليم  
 بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شئ ، فيهما .

وفى الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة :

( ١ ) أنه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركز إليه من زوجة أو صديق .

( ٢ ) أنه يجب على من استكتم الحديث أن يكتمه .

( ٣ ) أنه يحسن التلطف مع الزوجات فى العتب والإعراض عن الاستقصاء .

فى الذنب .

ثم وجه الخطاب لحفصة وعائشة مبالغة فى العتب فقال :

( إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ) أى إن تتوبا من ذنبكما وتقلما عن مخالفة

رسوله صلى الله عليه وسلم فتجباً ما أحب وتكرها ما كرهه — فقد مالت قلوبكما إلى

الحق والخير ، وأديتما ما يجب عليكما نحوه صلى الله عليه وسلم من إجلال وتكريم

لمنصبه الشريف .

زوى عن ابن عباس أنه قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر رضى الله عنه عن المرأتين

من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله لهما « إن تتوبا إلى الله » الآية .

حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق نزل ليتوضأ فصبيت على

يديه ، فقلت يا أمير المؤمنين : من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان

قال الله لها « إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ » الآية ؟ فقال واعجباً لك يا ابن عباس! هما عائشة وحفصة ، ثم أخذ يسوق الحديث .

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال :

( وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ) أى وإن تتعاوننا على العمل لما يؤذيه ويسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره — فلن يضره ذلك شيئاً ، فإن الله ناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

وقد أعظم سبحانه شأن النصره لنبيه على هاتين الضعيفتين ، للإشارة إلى عظم مكر النساء ، والمبالغة فى قطع أطاعهما بأنه ربما شفع لهما مكاتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند المؤمنين لأموتهما لهم ، وكرامة له صلى الله عليه وسلم ورعاية لأبويهما ، ولتوهين أمر تظاهرها ، ودفع ماعسى أن يتوعمه المنافقون من ضرره فى أمر النبوة ، وقهر أعداء الدين ، إذ قد جرت العادة بأن الشئون المنزلية تشغل بال الرجال وتضيع زمنا من تفكيرهم فيها ، وقد كانوا أحق به فى التفكير فيما هو أجدى نفعاً ، وأجل فائدة .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفف من غلوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال :

( عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ساجدات ثيبات وأبكارا ) أى عسى الله أن يعطيه ( صلى الله عليه وسلم ) بدلكن أزواجا خيرا منكنّ إسلاما وإيمانا ، ومواظبة على العبادة ، وإقلاعا عن الذنوب ، وخضوعا لأوامر الرسول ، بعضهنّ ثيبات وبعضهنّ أبكارا ، إن هو قد طلقكنّ .

والخلاصة — احذرن أيتها الأزواج من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والتألب عليه ، والعمل على مايسوؤه ، فإنه ربما أخرج صدره فطلقكنَّ فأبدله الله من هو خير منكنَّ في الدين والصلاح والتقوى ، وفي الشؤون الزوجية ، فأعطاهنَّ أبكاراً وبعضهنَّ ثيبات .

ولاشيء أشد على المرأة من الطلاق ، ولا سيما إذا استبدل خير منها بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في العيرة عليه ، فقالت : عسى ربه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنَّ فنزلت هذه الآية .

وروى عن أنس عن عمر قال : بلغنى عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاهنَّ إياه ، فاستقرت بهنَّ امرأة امرأة أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : إن أبيتينَّ أبدله الله خيراً منكنَّ حتى أتيت على زينب ، فقالت يابن الخطاب : أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظون أنت فأمسكت ، فأنزل الله : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ  
وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ  
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا  
تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً  
نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْمَعِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَعْيُنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْعِمْنَا لَنَا نُورَنَا ،  
وَاعْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)

### شرح المفردات

قوا أنفسكم : أى اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصي ، وأهليكم : أى بحملهم  
على ذلك بالنصح والتأديب ، والوقود ( بفتح الواو ) : ما توقده النار ، والحجارة :  
هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ  
جَهَنَّمَ » ملائكة : هم خزنتها التسعة عشر ، غلاظ : أى غلاظ القلوب لا يرحمون  
إذا استزحموا ، شداد : أى أقوياء الأبدان ، والتوبة النصوح : هى الندم على مافات  
والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالتوبة عما فرط من الزلات ،  
وأبان لهم أن الله كالى رسوله وناصره ، فلا يضره تظاهره عليه ، ثم حذرهن من  
التمادى فى مخالفته صلى الله عليه وسلم خوفاً من الطلاق وحرمانهم من الشرف العظيم  
بكونهن أمهات المؤمنين ومن استبداهن بغيرهن من صالحات المؤمنات — أمر  
المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة ،  
يوم يقال للكافرين : لا تعتذروا فقد فات الأوان ، وإنما تلقون جزاء ما عملتم  
فى الدنيا ، ثم أمر المؤمنين أن يقلعوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحا ، فيندموا  
على ما فرط منهم من المفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ، ليكفر الله  
عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم .

## الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ) أَيُّ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ : لِيُعْلِمَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَا تَقْتُمُونَ بِهِ النَّارَ وَتَدْفَعُونَ بِهَا عَنْكُمْ ، إِنَّهُ طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ ، وَتَعَلُّمُوا أَهْلِيكُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ مَا يَقُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا ، وَاحْتِلَامُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالنَّصِيحِ وَالتَّوْبِ .

وَنَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وَقَوْلُهُ : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .

رَوَى أَنَّ عُمَرَ قَالَ حِينَ نَزَلَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ : نَقَى أَنْفُسَنَا ، فَكَيْفَ لَنَا بِأَهْلِينَا ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « تَهَوَّنِينَ عَمَانَهَا كَمَا اللَّهُ عَنْهُ ، وَتَأْمُرُونَنِي بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَقَايَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّارِ » .

أَخْرَجَ ابْنُ النَّذْرِ وَالْحَاكِمُ فِي جَمَاعَةِ آخِرِينَ عَنْ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : عَلِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ الْخَيْرَ وَأَذَبُوا .

وَالْمُرَادُ بِالْأَهْلِ مَا يَشْمَلُ الزَّوْجَةَ وَالْوَلَدَ وَالْعَبْدَ وَالْأُمَّةَ .

وَفِي الْآيَةِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ تَعَلُّمُ مَا يَجِبُ مِنْ فَرَائِضِ الدِّينِ وَتَعْلِيمُهَا لِهُؤُلَاءِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَالَ يَا أَهْلَاهُ : صَلَاتِكُمْ ، صِيَامِكُمْ ، زَكَاتِكُمْ ، مَسْكِينَتِكُمْ ، بَيْتِكُمْ ، جِيرَانِكُمْ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُكُمْ مَعَهُمْ فِي الْجَنَّةِ » .

( عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ ) أَيُّ مَوَكَّلٌ عَلَيْهَا وَيَلِي أَمْرَهَا وَتَعْذِيبُ أَهْلَهَا تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَكًا مِنْ زَبَانِيَتِهَا الَّذِينَ سَيَأْتِي ذِكْرُهُمْ فِي سُورَةِ الْمَدْثَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « سَأَصْلِيهِ سَقْرًا . وَمَا أَذْرَاكَ مَسْقَرًا . لَا تَتَّبِعِي وَلَا تَنْذَرِي . لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » .

( غَلَاظُ شِدَادٍ ) أَيُّ غَلَاظُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ أَشْدَاءَ عَلَيْهِمْ .

ثم بين عظيم طاعتهم لربهم فقال :

(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) أى لا يخالفون أمره ، بل يؤدون ما يؤمرون به فى وقته بلا تراخ فلا يقدمونه عنه ولا يؤخروه .

وقد أفادت الجملة الأولى نفي العناد والاستكبار عنهم فهى كقوله: «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ» وأفادت الجملة الثانية نفي الكسل عنهم فهى كقوله تعالى : «وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ» .

وخلاصة ذلك — إنهم يمتثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه ، بل يؤدونه من غير تناقل ولا توان .

وبعد أن ذكر شدة العذاب فى النار واشتداد الملائكة فى الانتقام من أعداء الله الكافرين — بين أنه يقال للكافرين لافائدة فى الاعتذار لأنه توبة ، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول فى النار فقال :

(يأيتها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) فقد فات الأوان ، ولا يجدى رجاء ولا اعتذار ، فلات ساعة مندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندمم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ثم بين السبب فى عدم فائدة الندم فقال :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى لأنكم إنما تثابون اليوم وتعطون جزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فلا تطلبوا المعاذير منها .

والخلاصة — إن هذه النار دار جزاء لادار عمل ، وأتم قد دسبتم أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى بعد أن نهيتم عنها ، فاجنوا ثم ماغرستم ، واشربوا من الكأس التى قد ملأتم .

وبعد أن ذكر أن التوبة فى هذا اليوم لاتجدى نفعا — نبه عباده المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة بالنصوح فقال :

(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) أي أيها الذين صدقوا الله ورسوله : ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله وإلى ما يرضيه عنكم — رجوعا لا تعودون فيه أبدا ، عسى ربكم أن يحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم ، ويدخلكم بسنتين تجري من تحت أشجارها الأنهار حين لا يخزي الله محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : التوبة النصوح أن يندم العبد على الذنب الذي أصابه ، فيعتذر إلى الله ثم لا يعود أبدا ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، وهكذا روى عن عمرو بن مسعود وأبي بن كعب والحسن وغيرهم .  
وقال الإمام النووي : التوبة النصوح ما استجمعت ثلاثة أمور :

(١) الإقلاع عن المعصية .

(٢) الندم على فعلها .

(٣) العزم الجازم على ألا يعود إلى مثلها أبدا .

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي وجب رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه ، أو تحصيل البراءة منه .

والخلاصة — إن المعصية إن كانت في خالص حق الله كفي فيها الندم كما في الفرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف ، وإن تعلق بحق العباد لزم مع الندم العزم على إيصال حق العبد أو بدله إليه إن كان الذنب ظلما كما في الغصب والقتل العمد ، والاعتذار إليه إن كان إيداء كما في الغيبة إذا بلغت ، ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أخش .

وجيء بكلمة (عسى) التي تفيد الطمع في حصول العفو فحسب ، مع أن الله سبحانه وعد بقبول التوبة — جريا على سنن الملوك في التخاطب ، فإنهم يقولون

إذا أرادوا فعلا: عسى أن نفعل كذا، وإشمارا بأن ذلك تفضل منه سبحانه، والتوبة غير موجبة له، وأن العبد ينبغى أن يكون بين خوف ورجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة.

ثم بين ما يكون للنبي والذين آمنوا معه من علامات الظفر والفوز بالمطلوب فقال: (نورهم يسمى بين أيديهم وبأيامهم) أى نورهم يسعى بين أيديهم حين يمشون وبأيامهم حين الحساب، لأنهم يؤتون الكتاب بأيامهم وفيه نور وخير لهم. ثم بين ما يطلبونه من ربهم فقال:

(يقولون: ربنا أتم لنا نورنا واغفر لنا) أى يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط، حين يقول لهم المنافقون والمنافقات: انظرونا نقتبس من نوركم، وقد تقدم نحو هذا في سورة الحديد، ويطلبون أيضا منه أن يستر عليهم ذنوبهم، ولا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب.

ثم ذكروا ما يطعمهم في إجابة الدعاء فقالوا: (إنك على كل شىء قدير) أى إنك على إتمام نورنا، وغفران ذنوبنا، وكل ما نرجو منك ونطمع — قدير ياربنا، فاللهم أجب دعاءنا، ولا تخيب رجاءنا. وقد روى أن أديانهم منزلة من يكون نوره بقدر ما يبصر موطن قدمه، لأن النور على قدر العمل.

وروى أن السابقين إلى الجنة يمشون على الصراط مثل البرق، ويمر بعضهم كالريح، وبعضهم يحبو حبواً ويزحف زحفاً، وهم الذين يقولون: « رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا » .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبئس المصيرُ (٩).

## شرح المفردات

الجهاد تارة يكون بالسيف وأخرى بالحجة والبرهان ، واغلظ عليهم : أى شدد ،  
والمأوى : مكان الإيواء والإقامة .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله والإخبات إليه .  
أمر رسوله بقتال الكفار الذين يقفون في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله ، وبعيد  
المنافقين والغلظة عليهم حتى يشوبوا إلى رشدهم ، وذكر أن جزاءهم في الآخرة جهنم  
وَبئسَ المقيَل والمأوى .

## الإيضاح

( يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ) أى جاهد الكفار بالسيف  
وقاتلهم قتالاً لاهوادة فيه ، وجاهد المنافقين بالإنداز والوعيد وبيان سوء المنقلب ،  
وعنقهم بفضيحة عاجلة تبين قبح طواياهم وخبث نفوسهم ، كما حدث منه صلى الله  
عليه وسلم في المسجد الجامع لبعض المنافقين على ملاء من الناس فقال : اخرج يافلان ،  
اخرج يافلان ، وأخرج منهم عدداً كثيراً .  
ثم بين سوء عاقبتهم فقال :

( وماوهم جهنم وبئس المصير ) أى وسيكون مسكنهم جهنم وبئس  
المثوى والمقيَل .

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا  
تَحْتِ عِبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمَّ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا  
 امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ  
 فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَرَمِيمَ بِنْتِ عِمْرَانَ الَّتِي  
 أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ  
 وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ (١٢) .

### شرح المفردات

ضرب المثل : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها في الغرابة ،  
 تحت عبدين : أى فى عصمتها ، نجاتها : أى نافتنا فأخفتنا الكفر وأظهرنا الإيمان ،  
 وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط نزل قومه على نزول أضيافه  
 عليه ، فلم يعنيا عنهما : أى لم يفيداها ولم يجزيا عنهما من الله شيئاً ، امرأة فرعون :  
 على ما قيل هى آسية بنت مزاحم ، نجى من فرعون وعمله : أى خلصنى منه فإنى  
 أبرأ إليك منه ومن عمله ، والقوم الظالمون : هم الوثنيون أقباط مصر ، وأحصنت  
 فرجها : أى حفظته وصانته ، والفرج : شق جيب الدرع ( القميص ) إذ الفرج لغة  
 كل فرجة بين الشئين ، ويراد بذلك عفتها ، وكلمات ربها : أى شرائعه وكتبه التى  
 أنزلها على رسله ، والقائمين : أى الطائعين المحبتين إلى الله الممثلين أو امره .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر عباده المؤمنين بالتوبة النصوح بالندم على مافات ، وعدم العودة  
 فيها هوآت ، وأمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة لهم فى القول والعمل .  
 ذكر هنا أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، وفى جوهرها صفاء ونقاء .

فلا تجدى فيها العظة والعبرة ولا مخالطة المؤمنين المتقين ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط فقد كانتا في بيت النبوة ولم يلن قلبهما للإيمان والإسلام .

كذلك إذا كان جوهر النفس نقيًا خالصًا من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لا تغير من حالها شيئًا ، ولا يؤثر فيها ضلال الضالين ولا اعتواء الظالمين ، وضرب لذلك مثل امرأة فرعون التي ألحفت عليها فرعون وقومه أن تعتنق الوثنية التي كانوا يدينون بها ، وتعتقد ألوهيته هو فأبت وجاهدت في الله حق جهاده حتى لاقت ربها وهي آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل في قلبها من نور الإيمان ، وكذلك مريم بنت عمران التي عفت فأتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت نبي الله عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدین القانتين .

وفي هذا المثل إيحاء إلى أن قرابة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم لا تجديهم نفعًا بعد كفرهم وعداوتهم له وللمؤمنين ، فإن الكفر قد قطع العلائق بينه وبينهم وجعلهم كالأجانب ، بل أبعد منهم كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما ، كما تضمن التعريض بأذى المؤمنين حفصة وعائشة لما فرط منهما ، والتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه .

## الإيضاح

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أي ضرب الله مثلا يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بمغظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين لظلمة قلوبهم وسوء استعدادهم وفساد فطرتهم — امرأة نوح وامرأة لوط إذ كانتا في عصمة نبيين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما ويحصلا ما فيه سعادتهما في معاشهما ومعادها ، لكنهما أبوتا ذلك وعملتا ما يدل على الخيانة والكفر ، فانهمت الأولى زوجها بالجنون ، وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لما رآب خبيثة ،

فلم يدفع عنهما قريهما من ذنبك العبدین الصالحین شيئاً ، وحقق بهما سوء ماعملتا ،  
وسيحل بهما عقاب الله ، وسيدخلان النار في زمرة داخلها جزاء وفاقا لما اجترحتا من  
السيئات ، وما دستا به أنفسهما من كبير الآثام ، وعظيم المعاصي .

وفي هذا تعريض بأهات المؤمنين ، وتخويف لمن بأنه لا يفيدهنَّ — إن أتين  
بمعصية — اتصاهنَّ بالنبي صلى الله عليه وسلم وكوهنَّ في عصمته .

وبعد أن ضرب مثلا يبين به أن وصلة الكافرين بالمؤمنين لا تفيدهم شيئاً .  
أرشد إلى عكس هذا فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لا يضرهم شيئاً فقال :

( وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا  
في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ) أي وجعل الله حال امرأة  
فرعون مثلا يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لا تضرهم شيئاً إذا كانت النفوس  
خالصة من الأكدار ، فقد كانت تحت أعدى أعداء الله في الدنيا ، وطلبت النجاة  
منه ومن عمله ، وقالت في دعائها : رب اجعاني قريبا من رحمتك ، وابن لي بيتاً  
في الجنة ، وخلصني من أعمال فرعون الخبيثة ، وأتقذني من قومه الظالمين .

وفي هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث ، ومن سنن الله أن لا تزر  
وازرة وزر أخرى ، وأن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت .

( ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات  
ربها وكتبه وكانت من القانتين ) أي وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال مريم  
وما أوتيت من كرامة الدنيا وكرامة الآخرة ، فاصطفاها ربها مع أن أكثر قومها  
كانوا كفاراً ، من قبل أنها منعت جيب درعها جبريل عليه السلام . وقالت له :  
« إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيماً » فأثبتت بذلك عفتها وكمال طهارتها ،  
فنفخ جبريل في جيب درعها فحملت بنبي الله و كلمته عيسى صلوات الله عليه ، وصدقت  
بشرايع الله وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ، وكانت في عداد القانتين العابدين المحبتين  
لربهم المطيعين له .

روى أحمد في مسنده: «سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم عائشة»  
وفي الصحيح «كُلُّ مَنْ كَلَّمَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرًا وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَةُ بِنْتُ مَرْحَمٍ  
:امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَفَضْلُ  
عَائِشَةَ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» .

وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة  
المثونة في المضع وسرعة المرور في المرئ ، فضربه مثلا ليؤذن بأنها رضى الله عنها  
أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق ، وفصاحة الكلام ، وجودة القريحة ، ورزانة  
الرأى ، ورسانة العقل ، والتجرب للبعل ، وبحسبك أنها عقلت من النبي صلى الله  
عليه وسلم ما لم يعقل غيرها من النساء ، وروت ما لم يرو مثله الرجال .

### ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على شيئين :

(١) أخبار نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وحلقه صلى الله عليه وسلم ألا يشرب  
العسل إرضاء لبعضهن ، وإطلاع الله له على ما أفشين من سرٍّ أمرهنَّ بكتمه ، من  
أول السورة إلى قوله : « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

(٢) ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بحلول من أرباض القاهرة كورة الديار  
المصرية في العشرين من شهر رمضان المعظم من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد  
الألف من الهجرة .

## فهرس

### أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

- | الصفحة | المبحث   |
|--------|--|
| ٥      | ما قالته خولة بنت ثعلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو زوجها .               |
| ٧      | أحكام الظهار والعقوبات التي شرعت لذلك .  |
| ٩      | من يشاق الله ورسوله يلحقه الخزي والهوان .  |
| ١١     | ما يتناجى ثلاثة إلا والله رابعهم ولا خمسة إلا والله سادسهم .                     |
| ١٢     | كان اليهود يحبون الرسول بغير تحية الله استهزاء به .                              |
| ١٤     | نهى المؤمنين عما سيكون سببا للتباغض من التناجى بالعدوان .                        |
| ١٦     | كان الصحابة يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه . |
| ١٨     | أمر المؤمنين بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحديث معه .                      |
| ٢١     | كان قوم من المنافقين يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين .                |
| ٢٥     | المنافقون شاقوا الله ورسوله فكذب عليهم الذلة في الدنيا والآخرة .                 |
| ٢٧     | لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله .   |
| ٢٨     | اللهم لا تجعل لفاجر ولا لغاش على يدا ولا نعمة فيوده قلبي .                       |
| ٣٢     | نقض اليهود للعهد وإجلاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم إلى بلاد الشام .           |
| ٣٤     | قذف الله الرعب في قلوب اليهود فلم يجدوا للمقاومة سبيلا .                         |
| ٣٧     | حكم ما أخذ من أموال اليهود .   |

- الصفحة  
المبحث
- ٣٩ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .
- ٤١ مدح الأنصار .
- ٤٤ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .
- ٤٧ مناصحة المنافقين كعبد الله بن أبي ررقته لليهود .
- ٤٩ نكوص المنافقين في عهدهم لليهود .
- ٥٣ نصيح المؤمنين بلزوم التقوى والعمل بما يفهمهم في دنياهم وأخراهم .
- ٥٤ من مواعظ أبي بكر رضى الله تعالى عنه .
- ٥٦ القرآن الكريم مرشد وهاد .
- ٦١ ما فعله حاطب بن أبى بلتعنة من نصيحته للمشركين .
- ٦٣ ذكر الموانع التى تمنع من مناصحة المشركين .
- ٦٥ أمر الصحابة بأن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام وأصحابه .
- ٦٦ كان بعض المؤمنين يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الكفر فنهوا عن ذلك .
- ٦٩ وعد المؤمنين بأنه سيعير من طباع المشركين ويفرس فى قلوبهم محبة الإسلام .
- ٧١ الكافرون المعاندون أقسام ثلاثة .
- ٧٣ كتاب الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين عام الحديبية .
- ٧٥ مبايعة المؤمنات المهاجرات للنبي صلى الله عليه وسلم .
- ٧٧ كان بعض فقراء المؤمنين يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ليصيبوا من ثمارهم .
- ٨٠ أحب الأعمال إلى الله إيمان به ، وجهاد لأهل معصيته .
- ٨١ أمر المؤمنين بالقتال صفاء صفاء كأنهم بنيان مرصوص .
- ٨٤ ما جاء فى التوراة والإنجيل من البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام .

- ٨٧ الصادق عن دعوة الدين كمن يريد إطفاء نور الشمس .
- ٨٨ فرح اليهود ببطء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٨٩ الإيمان بالله والجهاد بالنفس تجارة رابحة .
- ٩٠ الجهاد على ضروب .
- ٩١ رفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من الأرض في زمن وجيز .
- ٩٤ الحكمة في إرسال الرسول غربيا إلى العرب .
- ٩٦ «لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من فارس» .
- ٩٧ النعى على المشركين بأنهم لم يفهموا التوراة .
- ٩٩ آية المباهلة .
- ١٠١ نهى المؤمنين عن تشاغلهم عن عظات النبي صلى الله عليه وسلم .
- ١٠٢ أسر المؤمنين أن يأتوا إلى الصلاة وعليهم السكينة .
- ١٠٢ مراقبة الله تنيل الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة .
- ١٠٦ وصف الله سبحانه المنافقين بأقبح الصفات .
- ١٠٧ كانت عُدَّة المنافقين الإيمان الكاذبة .
- ١٠٨ وصف المنافقين بحسن المنظر وقبح المخبر .
- ١١٠ ذكر الأدلة على نفاق المنافقين .
- ١١٣ ما فعله عبد الله بن عبد الله بن أبي المنافق .
- ١١٥ نهى المؤمنين عن تشاغلهم بالدنيا .
- ١١٩ الإنسان يضم روحا من عالم الأرواح وبدنا من عالم الأشباح .
- ١٢١ تحذير المشركين من تماديهم في الجحود وإنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

## المبحث

## الصفحة

- ١٢٣ إقامة الأدلة على أن البعث حق لا شك فيه .
- ١٢٦ ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره .
- ١٢٧ على المؤمن واجبان : السعى في جلب الخير ودفع الضر ، ثم التوكل على الله .
- ١٢٨ من الأولاد والزوجات أعداء الإنسان يثبطونهم عن الطاعة .
- ١٣٠ في الحديث « إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال » .
- ١٣١ من يقرض غير ظلوم ولا عديم ؟ الحديث .
- ١٣٤ الأمر بالطلاق في الطهر الذي يحسب للمرأة .
- ١٣٥ الطلاق أقسام ثلاثة .
- ١٣٦ أمر المطلقة بالمكث في البيت إلا أن تأتي بفاحشة مبينة .
- ١٣٧ « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » الحديث .
- ١٤١ قصص عوف بن مالك الأشجعي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١٤٢ عدة الصغار اللاتي لم يحضن والكبار اللاتي يتسنن من الحيض .
- ١٤٣ عدة الحامل وضع الحمل ولو بعد ساعة .
- ١٤٥ ما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة .
- ١٤٦ نفقة الحوامل .
- ١٤٧ القدر الواجب في النفقة .
- ١٤٩ لا تلحل المطلقة لزواج آخر إلا بعد انقضاء عدتها .
- ١٥٢ ما تضمنته سورة الطلاق من الأحكام الشرعية والشئون الدينية .
- ١٥٦ في الحديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلاء والعسل » .
- ١٥٧ أمر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة حديثاً فأخبرت به عائشة .

- الصفحة
- المبحث
- ١٥٨ لاجرح في الإياحة بالسرا إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق .
- ١٦٠ تحذير أمهات المؤمنين من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١٦٣ الآخرة دار جزاء لا دار عمل .
- ١٦٤ شروط التوبة النصوح .
- ١٦٦ الأمر بقتال المشركين الذين يقفون في سبيل الدعوة إلى الإيمان .
- ١٦٧ النفوس إن لم يكن في جوهرها صفاء لا تنفع فيها العظة .
- ١٦٩ ضرب المثل بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران .
- ١٧٠ في الحديث « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع » .